مجلة جامعة جازان للعلوم الإنسانية
Jazan University Journal of Human Sciences (JUJHS)

حوار الآخرة في "آل حم" – دراسة في بيان النظم الكريم

محمد أبو العلا الحمزاوي
قسم البلاغة والنقد، كلية الفنون والعلوم الإنسانية، جامعة جازان، المملكة العربية السعودية

The Dialogue of The Hereafter in 'Al-Hawamim' - a Study in the Statement of the Noble Qur'an

Mohamed Abou El Ela Elhamzawy
Department of Rhetoric and Criticism, College of Arts and Humanities, Jazan University, Kingdom of Saudi Arabia

DOI	RECEIVED الاستلام	Edit التعديل	ACCEPTED القبول
https://doi.org/10.37575/h/edu/22002	2024/01/30	2024/06/03	2024/06/04
NO. OF PAGES عدد الصفحات	YEAR سنة العدد	VOLUME رقم المجلد	ISSUE رقم العدد
31	2024	1	13

الملخص:

يهدف البحث إلى الكشف عن دقائق التشكيل البياني الخاصة في آيات حوار الآخرة في سور "آل حم" السبع: من (غافر– الأحقاف)؛ لما تمتاز به من تلاؤم مقاصدها ومحاورها؛ وما يسري في بنائها الحواري من خصائص بلاغية، تمثلت في: امتزاج الخبر بالطلب، والتصوير المرئي، واستحضار المشهد، وصور النداء في يوم التناد، وروائع التقابل في مواقف الحوار، وما تفرَّدت به من مشاهد حوارية لا توجد في نظائرها في القرآن الكريم.

ويستدعي البحث في رصده وتحليله المنهج: الفني، والاستقرائي، والاستنباطي؛ فيقوم بتحديد دقائق التشكيل البياني الخاصة بحوارات الآخرة في "آل حم"، في بنائها الأسلوبي، ويحللها تحليلا يكشف عن بلاغتها الخاصة، مع الربط بينها وبين المواضع الأخرى في "آل حم"؛ لاستحضار صورة المشهد ونموه وتطوره، والمقارنة مع نظائرها في القرآن الكريم، التي تلتقي معها أو تقاربها في المشهد الحواري؛ لتحديد السمات الخاصة بحوار الآخرة في "آل حم"، في إطار من الإيجاز.

الكلمات مفتاحية: الحوار، الآخرة، النظم، آل حم، التشكيل.

Abstract:

The research tends to explain the occasion of the special construction in the verses of the dialogue of the hereafter in the seven surahs of 'Al-Hawamim': (Ghafir - Al-Ahqaf) ؛Due to its compatibility in its purposes and axes, and the special rhetorical characteristics that apply in its dialogical structure, represented in: The mixing of news with demand, visual photography and evocation of the scene, images of the call on the day of the call, masterpieces of correspondence between the positions of dialogue, and the unique scenes of dialogue that are not found in other places of dialogues of the hereafter in the Holy Qur'an.

The research calls for monitoring and analyzing it: the artistic, inductive, and deductive approach, as it identifies the characteristics of the graphic formation of the dialogues of the hereafter in 'Hawamim', in their stylistic construction, and analyzes these phenomena in an analysis that reveals their subtleties and their own eloquence, while linking them with other positions in 'Hawamim' in particular, to evoke the image of the scene, its growth and development, and comparing it with its counterparts in the Holy Qur'an that meet or converge with it in the dialogue scene, to determine the features of the dialogue of the hereafter in 'Al-Hawamim', in a framework of brevity.

Keywords: Dialogue, Hereafter, Qur'an, Alhawameim, Formation.

المقدمة

الحمد لله حمدًا يوافي نعمه، ويكافئ مزيده، وأصلي وأسلم على خاتم رسله، أفصح خلق الله بيانًا، وأصدقهم جناناً، رحمة الله للعالمين، محمد بن عبد الله، الصادق الأمين.

وبـــــعد

الحوار وسيلة راسخة من وسائل القرآن لبيان دين الحق، والدعوة إلى الإيمان بالله وحده، وتفنيد الباطل على

اختلاف صوره وأشكاله وأزمانه، وهو الوسيلة المثلى لإقناع أولي الألباب، ومخاطبة العقل والوجدان؛ من خلال ضرب الأمثال، وردِّ الشبهات عن الدين، والتحذير من مصائر الهالكين.

ولقد تنوعت أشكال الحوار ومقاصده في القرآن الكريم، ومن أبرزها وأعجبها: حوارات الآخرة التي ينقل لنا فيها القرآن مشاهد ومواقف من عالم الغيب كأنها رأي العين، ويصور لنا أحوالًا من النعيم والعذاب، ومواقف يملؤها الحبور والسرور والتكريم لأهل الجنة، ومشاهد أخرى تملؤها الحسرة والندم والتأنيب والألم لأهل النار.

ولقد تميز حوار الآخرة في القرآن الكريم بنسق خاص في تشكيله وبنائه الأسلوبي؛ نظرًا لما يسعى إلى ترسيخه من غايات وعظات حول الآخرة، وهو من مبتكرات القرآن بهذا "الأسلوب القصصي، في حكاية أحوال النعيم والعذاب في الآخرة، وفي تمثيل الأحوال"[١]

والآخرة نتيجة وحصيلة لآفاق ممتدة بامتداد عمر البشرية في أعمالها وأعمارها، وقد طوى القرآن محصولها في سياقات موجزة ومركزة جدًا؛ لكنها تتميز في إيجازها باتساع المساحات الشاسعة التي تغطيها هذه المشاهد والمواقف الحوارية من يوم القيامة، ومواقف الناس ابتداءً من العرض على الله تعالى، ومقدمات الحساب إلى قرار أهل الجنة في النعيم، وأهل النار في الجحيم، وما يتبع ذلك من حوار يملأه الفرح والسرور والاستبشار لأهل النعيم، وحوار آخر يملأه الحسرة والندم والألم لأهل العذاب. كما يتسع الحوار ويختلف باختلاف أطرافه؛ فهناك حوارات بين رب العالمين وأهل النعيم، وحوارات بين رب العالمين وأهل الجحيم، وحوارات بين الملائكة وأهل الجنة والنار، وحوارات بين أهل النار وأهل الجنة، وحوارات ومواقف مختلفة بين أهل النار خاصة، وحوارات بين الشيطان وأهل النار، وحوارات مع القرين في العذاب، وحوار مع النفس، وحوار مع الجلود، وكلها ألوان لها سماتها الخاصة في تشكيلها، وفيض دلالتها.

والبحث يسعى إلى تحليل بعض دقائق التشكيل البياني الخاص بـ حوار الآخرة في "آل حم" في سور:" غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف".

أسباب اختيار البحث:

- عدم وجود دراسة لدقائق تشكيل النظم في حوار الآخرة في "آل حم".
- ما تتميز به "آل حم" من مشاهد حوارية، تتنوع في تشكيلها وبنائها، وما يتبع ذلك من دقائق وأسرار.
- التشاكل بين مواضع حوار الآخرة في "آل حم" من جهة تدرجها ونموها من سورة لأخرى، وفي مطالع سورها ومقاطعها؛ لكونها نزلت تباعًا ابتداءً بسورة "غافر"، وانتهاءً بسورة "الأحقاف".

الدراسات السابقة:

هناك ثلاث دراسات حول أسرار البيان في "آل حم" بصورة عامة، وهي:

- آل حم – غافر – فصلت – دراسة في أسرار البيان، محمد أبو موسى [٢]
- آل حم – الشورى – الزخرف – الدخان – دراسة في أسرار البيان، محمد أبو موسى [٣]
- آل حم – الجاثية – الأحقاف – دراسة في أسرار البيان، محمد أبو موسى [٤]

(١) ينظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير ١٢٠/١

(٢) ط مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م.

(٣) ط مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ٢٠١٠م.

(٤) ط مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ٢٠١١م.

وهي دراسات قيمة ومتسعة لأسرار البيان، ولكنها لم تحدد خصائص الحوار وتشكيله فيها بصورة خاصة؛ فلم تتجه لدراسة للحوار، ودقائقه، وعلاقته بنظائره في القرآن الكريم؛ ولم تحدد سمات البيان الخاصة في هذا الجانب؛ ومن ثم فهي لا تلتقي مع محاور البحث وأهدافه.

منهج البحث:

يستدعي البحث في رصده وتحليله: المنهج الفني للتحليل البلاغي، معتمدًا على الاستقراء والاستنباط؛ فيقوم بتحديد دقائق التشكيل البياني الخاصة بحوارات الآخرة في "آل حم"، في بنائها الأسلوبي، وتحليل ظواهرها تحليلًا يكشف عن بلاغتها الخاصة، مع الربط بينها وبين نظائرها في القرآن الكريم في غير "آل حم"، التي تلتقي معها أو تقاربها في المشهد الحواري؛ كذلك بيان السمات الخاصة بحوار الآخرة في "آل حم".

والبحث يتضمن: مقدمةً، وتمهيدًا، ومبحثين، وخاتمة، وفهارس.

المقدمة: وفيها: أسباب اختيار البحث، والدراسات السابقة، والمنهج.

التمهيد: وفيه: معنى الحوار، ومقاصده، وحصر لمواضعه في القرآن الكريم.

المبحث الأول: خصائص "آل حم" ومقاصدها.

المبحث الثاني: الدقائق البيانية لحوار الآخرة في "آل حم".

الخاتمة، وفيها: نتائج البحث، والفهارس.

والله أسأل سداد الرأي، وسلامة المنهج، ولزوم الصواب، والتوفيق لما يرضى من الأقوال والأعمال.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم

تمـــهيد

معنى الحوار:

أصل الحوار في اللغة: "من الحَوْرُ وهو الرجوع عن الشيء وإلى الشيء، وهم يتحاورون أي: يتراجعون الكلام، والمحاورة مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة"(١)، قال الراغب: "أصل الحوار: التردد... وحار الماء في الغدير: تردد فيه، وحار في أمره: تحيّر... والمحاورة والحوار: المرادة في الكلام"(٢)

فمادة (ح و ر) –كما سبق– تدور حول مراجعة الكلام وتردده في المخاطبة بين المتحاورين.

ووردت كلمة "الحوار" بمعنى "المحاورة" السابق في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم؛ منها موضعان بصيغة المضارع في سورة "الكهف"، وموضع بصيغة المصدر في سورة "المجادلة" على النحو الآتي:

- في سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الكَهْف : ٣٤] وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ [الكهف: ٣٧].
- وفي سورة المجادلة، قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾[المجادلة: ١].

والمحاوَرَةُ في المواضع الثلاثة بمعنى المجاوبة، فهي: مُراجَعَةُ الكَلامِ بَيْنَ مُتَكَلِّمِينَ، وقد جاءت في سورة "الكهف" في سياق الحوار بين المؤمن والكافر.

(١) ابن منظور، لسان العرب: ٢١٨/٤، مادة: (ح و ر).

(٢) الراغب، المفردات، صـ ٢٦٢، مادة (ح و ر).

وفي سورة "المجادلة" في سياق شكوى خولةَ بنتِ ثعلبة التي راجعت الرسول (ﷺ) في شأن زوجها أوس بن الصامت، وفيما صدر عنه في حقها من الظِّهار.

مقاصد الحوار في القرآن الكريم:

للحوار في القرآن الكريم مقاصد جليلة، ومنها: دعوة الناس إلى الإيمان بالله وحده، واتباع دين الإسلام، وإقامة الحجة والبرهان على وحدانية الله تعالى، والبعث، والترغيب والترهيب، والتبشير، والإنذار [١].

أما عن المقصد الأول؛ فالحوار هو المنهج الأمثل للإقناع، والوسيلة الأنجع في النصح والإرشاد، ودحض الضلال، ودفع الشبه عن الدين، والرد على أعدائه من المشركين، وهو منهج الأنبياء والمصلحين، مع اختلاف المدعوين.

ومن أمثلة ذلك: الحوارات التي عرضها القرآن للأنبياء مع أممهم؛ كحوار نوح، وإبراهيم، وموسى، وغيرهم من الأنبياء (عليهم السلام)، في مواضع كثيرة من القرآن الكريم.

وفي سياق حوار الرسول (ﷺ) مع أهل الكتاب والمشركين في مواضع كثيرة من القرآن الكريم؛ يأتي الجواب في محاوراتهم من الله تعالى، أو بأمْرِ الرسول بالقول بما يدفع باطلهم وشبههم، وبما يثبته (ﷺ)، والنوع الأخير شائع في السور المكية. وفي سياق الترغيب والترهيب، والتبشير والإنذار؛ يأتي الحوار ليعرض ما لحق الأمم المكذِّبة من العذاب، ومشاهد من حوارات يوم القيامة يتنوع فيها الحوار، ويمتد إلى آفاق شاسعة جدًا.

حصر حوار الآخرة في القرآن الكريم:

بعد المراجعة، والتتبع لآيات حوارات الآخرة؛ نجدها قد جاءت في (سبع وتسعين ومئتي آية)، وفي (سبعة وستين موضعاً)، وفي (خمس وأربعين سورة)، والسور المكية منها ثمان وثلاثون سورة؛ اشتملت على (تسعة وخمسين موضعاً)، و(مائتين وثمانٍ وسبعين آية)، والسور المدنية منها (سبع سور)، اشتملت على (ثمانية مواضع)، و(سبع عشرة آية)، كما في الجدول الآتي:

م	السورة حسب ترتيب المصحف	الآية	المكي والمدني	عدد المواضع
١	البقرة	(١٦٦، ١٦٧)	مدنية	١
٢	آل عمران	(١٠٦)	مدنية	١
٣	الأنعام	(٢٢-٢٤، ٣٠، ٩٤، ١٢٨، ١٢٩)	مكية	٤
٤	الأعراف	(٣٨، ٤٣، ٤٤، ٤٨-٥١)	مكية	٢
٥	التوبة	(٣٤، ٣٥)	مدنية	١
٦	يونس	(٢٨، ٢٩)	مكية	١
٧	هود	(١٨)	مكية	١
٨	الرعد	(٢٣، ٢٤)	مدنية	١
٩	إبراهيم	(٢١، ٢٢، ٤٤-٤٦)	مكية	٢

(١) ينظر: شادي، محمد إبراهيم، حول أهداف الحوار في القرآن الكريم: الحوار في القرآن الكريم، خصائصه التركيبية وصوره البيانية، صـ ٢١، ٢٢

م	السورة حسب ترتيب المصحف	الآية	المكي والمدني	عدد المواضع
١٠	النحل	(٢٧-٣١، ٨٦، ٨٧)	مكية	٢
١١	الإسراء	(١٣، ١٤)	مكية	١
١٢	الكهف	(٤٩، ٥٢-٥٤)	مكية	٢
١٣	طه	(١٠٢-١١٢، ١٢٤-١٢٦)	مكية	٢
١٤	الأنبياء	(٩٧-١٠٤)	مكية	١
١٥	الحج	(٩، ١٠، ٢٢)	مدنية	٢
١٦	المؤمنون	(٦٥-٦٧، ١٠٣-١١٥)	مكية	٢
١٧	الفرقان	(١٦-١٩، ٢٧-٢٩)	مكية	٢
١٨	الشعراء	(٩٤-١٠٣)	مكية	١
١٩	النمل	(٨٣-٨٥)	مكية	١
٢٠	القصص	(٦٢-٦٦، ٧٤، ٧٥)	مكية	٢
٢١	العنكبوت	(٥٢-٥٥)	مكية	١
٢٢	الروم	(٥٥-٥٧)	مكية	١
٢٣	السجدة	(١٢-١٤، ٢٠، ٢١)	مكية	٢
٢٤	الأحزاب	(٦٤-٦٨)	مدنية	٢
٢٥	سبأ	(٣١-٣٣، ٤٠-٤٢)	مكية	٢
٢٦	فاطر	(٣٦، ٣٧)	مكية	١
٢٧	يس	(٥٩-٦٥)	مكية	١
٢٨	الصافات	(٢٧-٣٥، ٥٠-٦١)	مكية	٢
٢٩	ص	(٥٩-٦١)	مكية	١
٣٠	الزمر	(٧١-٧٤)	مكية	١
٣١	غافر	(١٠-١٢، ٤٦-٥٠، ٧٠-٧٦)	مكية	٣
٣٢	فصلت	(١٩-٢٤، ٢٧-٢٩، ٤٧، ٤٨)	مكية	٣
٣٣	الشورى	(٤٤-٤٦)	مكية	١

م	السورة حسب ترتيب المصحف	الآية	المكي والمدني	عدد المواضع
٣٤	الزخرف	(٣٦-٣٩، ٧٢-٧٨)	مكية	٢
٣٥	الدخان	(٤٣-٥٠)	مكية	١
٣٦	الجاثية	(٢٧-٣٥)	مكية	١
٣٧	الأحقاف	(٢٠، ٣٤)	مكية	٢
٣٨	ق	(٢٤-٢٩)	مكية	١
٣٩	الطور	(١٣-٢٩)	مكية	١
٤٠	الحديد	(١٣-١٥)	مدنية	١
٤١	الملك	(٧-١١، ٢٧)	مكية	٢
٤٢	الحاقة	(١٩-٣٧)	مكية	١
٤٣	المدثر	(٣٩-٤٨)	مكية	١
٤٤	المرسلات	(٣٥-٣٩)	مكية	١
٤٥	النبأ	(٤٠)	مكية	١

المبحث الأول: خصائص "آل حم" ومقاصدها

معنى "آل حم":

"آل حم" كلها سور مكية، وقد نزلت تباعًا ابتداءً بـ سورة "غافر"، وانتهاءً بـ سورة "الأحقاف"[١]، ولما فيها من التناسب في المقاصد والمحاور جعلت نسيجًا واحدًا تحت اسم "آل حم" كما صحَّ على لسان بعض الصحابة [٢].

وهذه الإضافة في "آل" ليست بمعنى "أهل"، "بل هو لفظ يذكر قبل ما لا يصح تثنيته وجمعه من الأسماء؛ فإذا أرادوا تثنيته أو جمعه، زادوا قبله لفظ "آل"، أو "ذو"[٣]؛ فجاء اسم "آل حم" "مجازًا لهذه الصحبة المعنوية"[٤] التي تربط بينها في موضوعها، ومقاصدها، وابتدائها.

قال الفراء:" قوله "آل حم"، إنما هو كقولك: "آل فلان، وآل فلان"؛ كأنه نسب السورة كلها إلى "حم"[٥]، "وكما تقول هؤلاء "آل فلان" كأنك أضفتهم إليه"[٦].

وقد أشار الزركشي إلى هذه الرابطة المعنوية التي تجمع بين "آل حم" في مقاصدها ونزولها، كما رأوا في ترتيبها في المصحف إشارة إلى أن "ترتيب سور القرآن توقيفي صادر عن حكيم"[٧].

مقاصدها ووصفها:

يقول أبو حيان:" وهذه الحواميم مقصورة على المواعظ والزجر، وطرق الآخرة، وهي قصار لا تلحق فيها

(١) السيوطي، تناسق الدرر في تناسب السور، صـ ١٣٠

(٢) قال عبد الله بن مسعود:" **وَإِنِّي لَأَحْفَظُ الْقُرَنَاءَ الَّتِي كَانَ يَقْرَأُ بِهِنَّ النَّبِيُّ ﷺ، ثَمَانِيَ عَشْرَةَ سُورَةً مِنَ الْمُفَصَّلِ، وَسُورَتَيْنِ مِنْ آلِ حم**". صحيح البخاري – كتاب فضائل القرآن – باب الترتيل في القراءة – (٥٠٤٣).

(٣) الشهاب الخفاجي، شرح درة الغواص في أوهام الخواص، صـ ١٢٠، وينظر حول فصاحة الإضافة في لفظة "آل حم". الجوهري، الصحاح، ١٩٧٤/٥، ولسان العرب، ٢٦٧٢/٢٩، مادة (ط س م) والبغدادي، عبد اللطيف، ذيل الفصيح، صـ ١٠، والسيوطي، المزهر، ٣٠٨/١، ٣٠٩، وأجاز الشهاب الخفاجي "الحواميم"؛ لوروده في الحديث الصحيح، والشعر الفصيح. شرح درة الغواص، صـ ١١٨، ١١٩، وحاشيته على البيضاوي، ٥٣٩/٥

(٤) الشهاب الخفاجي، شرح درة الغواص، صـ ١٢٠

(٥) الهروي، أبو عبيد، غريب الحديث، ١٠٩/٥

(٦) ابن سلام، أبو عبيد القاسم، فضائل القرآن ٦٦/٢

(٧) الزركشي، بدر الدين، البرهان، ٢٦٠/١

سآمة"[١]، وقال العلماء: "إنها مكية لم يجر فيها حكم"[٢]، أي تشريع وأحكام.

وتلتقي "آل حم" في كثير من مقاصدها، المتصلة بالحديث عن آيات الله في الخلق، ودلائل القدرة، والحديث عن الكافرين، وتكذيبهم بالقرآن، وما لحق الأمم المكذبة من العذاب عظةً وعبرةً، والحديث عن صدق القرآن، وإقامة الحجج على ذلك، وبيان حجة التوحيد، ورد شبه الكافرين وضلالاتهم، وتقرير نبوة الرسول (ﷺ)، والحديث عن يوم القيامة، وما فيه من شدائد وأهوال، والرد على منكري البعث، وعرض لمشاهد ومواقف من حوارات الآخرة، وعذاب المجرمين، وبيان ما أعده الله للمؤمنين من النعيم المقيم [٣].

وجاء وصف "آل حم"، على لسان بعض الصحابة والتابعين؛ بما يشي بجلالها وجمالها، وحسن ترابطها واتصالها. ومن ذلك: قول عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه): " **إذا وقعتُ في "آل حم" وقعتُ في روضات دَمِثاتٍ أتأنَّقُ فيهن**"[٤].

والكلام هنا على التشبيه لهذه السور المباركات، وما فيها من وجوه التلاؤم والحسن بـ "البقاع التي تكون فيها صنوف النبات من رياحين البادية وغير ذلك، ويكون فيها أنواع النوْر والزهر، والدمثات: جمع دمثة، أي لينة سهلة، وقوله " أتأنَّقُ فيهن" يعني أتتبع محاسنهن، ومنه منظر أنيق إذا كان حسنًا معجبًا"، "وهو التنزه بالنظر إلى ما فيها من أنيق المعاني التي هي كالأنوار والثمار"[٥].

ويرى عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) أنها "لباب القرآن"؛ حيث يقول: "إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ لُبَابًا وَلُبَابُ الْقُرْآنِ آلُ حم أو قال الحواميم"[٦]، واللباب: "الخالص من كل شيء"[٧] أما مجاهد، فيقول: "آلُ حم دِيبَاجُ الْقُرْآنِ"[٨].

و"ديباجُ القرآن" بمعنى زينته؛ لما فيها من أمور الآخرة"[٩]، ولما في معنى "الدبْج" من "النقش والتزيين"[١٠]، والديباج: "الثياب المتخذة من الإبريسم"[١١]، أي الحرير. وقال أبو الدرداء:" كنا نسمي الحواميم: العرائس"[١٢]، وهو اسم يلتقي مع ما سبق في معنى الحسن، والزينة، والجمال، وروعة التلاؤم والانسجام في المقاصد والمعاني.

---

(١) البحر المحيط، ٤٢٩/٧، والخطيب، عبد الكريم، التفسير القرآني للقرآن، ١٤/١٣

(٢) الزجاج، أبو إسحاق، معاني القرآن، ٣٦٥/٤، والنسفي، تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل ١٩٦/٣ والبرهان، ٢٠٢/١، والبقاعي، مصاعد النظر، ٤٣٢/٢، ٤٣٣

(٣) ينظر: الفيروزآبادي، مجد الدين محمد، بصائر ذوي التمييز ٤٠٩/١، ٤١٠، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٨، ٤٢١، ٤٢٤، ٤٢٦، ٤٢٨

(٤) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٢٥٥)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٠٢٨٥)، وذكره محمد بن نصر المروزي في «مختصر قيام الليل» (ص: ١٧٥). أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير، ٨٢/١٣

(٥) الهروي، غريب الحديث، ١١٠/٥، وشرح درة الغواص، صـ ١٢٠.

(٦) ابن سلام، أبو عبيد القاسم، فضائل القرآن، ٦٤/٢، وتفسير ابن كثير، ١١٤/٧، والزركشي، البرهان، ٢٤٨/١

(٧) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، مادة (ألب) صـ ١٣٣

(٨) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٢٥٥)، وابن الضريس في «فضائل القرآن» (٣٠٢)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٠٢٨٣)، والحاكم في «المستدرك» (٣٦٣٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٢٤٣) من طريق مجاهد عن ابن مسعود موقوفًا. ورواه عبد الرزاق في «مصنفه» (٦٠٣١)، والمستغفري في «فضائل القرآن» (٨٨٦) عن مجاهد. التيسير في التفسير ٨٢/١٣

(٩) الشهاب الخفاجي، شرح درة الغواص، صـ ١٢٠

(١٠) ابن منظور، لسان العرب، ١٣١٦/١٥

(١١) ابن الأثير، مجد الدين المبارك، النهاية في غريب الحديث والأثر، ٩٧/٢

(١٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٠٢٨٤)، والدارمي في «سننه» (٣٤٦٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٢٥٣)، والثعلبي في «تفسيره» (٨/ ٢٦١) عن سعد بن إبراهيم. ورواه الشجري في «ترتيب الأمالي» (١/ ١٥٣) وابن الحمامي (٢٧٨) (مصنفات ابن الحمامي)، من قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه. التيسير في التفسير ٨٣/١٣

خصائص "آل حم":

اتسمت "آل حم" بالتناسب اللافت في مطالعها ومقاطعها، ومقاصدها كما تقدم؛ وهو ما يشي بهذه الرابطة المعنوية الجامعة بين مضامينها وغاياتها؛ والتي تمثل وجهًا من وجوه الإعجاز في النظم؛ وهو ما يتصل بالمناسبة بين السور والآيات، على النحو الآتي:

تناسب المطلع والختام:

﴿حمٓ ۝١﴾ تقرأ آية وحدها في كل سورها؛ وفي سورة "الشورى" أيضًا؛ "فهي مبتدأ، و﴿عٓسٓقٓ ۝٢﴾ خبره؛ لأنهما عدا آيتين، واختلفوا في "حم"؛ فأخرجها بعضهم من حيز الحروف، وجعلها فعلًا، وقيل معناها: "حم" أي قُضِيَ ما هو كائن"[١]، ومن دقائق التناسب [٢] في مطالعها: أنها ابتدأت بـ "حم"، ويجمعها قصد التحدي في هذا الافتتاح بهذه الحروف، وما تبعها من ذكر تنزيل الكتاب المبين أو القسم به.

وأشار الكرماني إلى هذا التشاكل الذي اختصت به:" وهو أن كل واحدة استفتحت بالكتاب أو صفة الكتاب، مع تقارب المقادير في الطول والقصر، وتشاكل الكلام في النظام"[٣]. ويقول السيوطي: "وجه إيلاء الحواميم السبع سورة "الزمر" تآخي المطالع في الافتتاح بتنزيل الكتاب، ثم إن الحواميم ترتبت لاشتراكها في الافتتاح بـ "حم"، وبذكر الكتاب بعد "حم"، وأنها مكية"[٤].

وهذا الابتداء بذكر القرآن يأتي غالبًا في السور المكية بعد الحروف المقطعة [٥].

والرأي الراجح في تأويلها: "أن مقصودها التحدي بالقرآن، وأنه دال على نبوة محمد (ﷺ)، وأنه من جنس حروفهم المتعالمة بينهم في كلامهم، ومع ذلك فهم يعجزون عن الإتيان بمثله" [٦].

ومن اللافت: أن السور التي افتتحت بالحروف الثنائية من الحروف المقطعة: عشر سور، وهي: "آل حم"، وطه، وطس "النمل"، ويس"، وكلها قد جاء بعدها ذكر تنزيل الكتاب، والقسم به، وبيان كونه وحيًا من الله تعالى ....، ويلمح الاشتراك في مقصود التحدي في هذا الابتداء كما تقدم في دقائق تناسبها.

أما عن الختام: فهو من روائع التناسب في "آل حم"؛ حيث ختمت سورة "غافر" ببيان خسر الكافرين في قوله تعالى: ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨٥﴾ [غافر: ٨٥]

وخُتمت سورة "فصلت" بالحديث عن شك الكافرين في لقاء ربهم، وبيان أنه بكل شيء محيط؛ في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ۝٥٤﴾ [فصلت: ٥٤]، وخُتمت سورة "الشورى" بالحديث عن صراط الله، وكون الأمور إلى الله تصير؛ في قوله

(١) البغوي، الحسين، معالم التنزيل، ١٨٣/٧، والشربيني، الخطيب، السراج المنير، ٤٩٥/٣، وحقي، إسماعيل، روح البيان، ٣١٤/٨

(٢) ومن وجوه التناسب أيضًا: التناسب بين مطلع وختام كل سورة منها. ينظر: السيوطي، مراصد المطالع في تناسب المطالع والمقاطع، صـ ٦٢-٦٥

(٣) الكرماني، محمود بن حمزة، غرائب التفسير وعجائب التأويل ١٠٧٣/٢

(٤) السيوطي، تناسق الدرر في تناسب السور، صـ ١٢٩

(٥) جاء ذكر القرآن، وتنزيله وبيانه، والقسم به، ونحو ذلك بعد الابتداء بالحروف المقطعة في أربع وعشرين سورة من تسع وعشرين، وهي:" البقرة، وآل عمران، والأعراف، ويونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر، والشعراء، والنمل، والقصص، ولقمان، والسجدة، ويس، وص، وآل حم السبع، وق".

(٦) ينظر: الباقلاني، إعجاز القرآن، صـ ٦٦، وابن أبي الإصبع، الخواطر السوانح في أسرار الفواتح، صـ١١٢، ١١٣، والزركشي، البرهان ١٧٥/١، والسيوطي، الإتقان ١٣٨٧/٤

تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٣].

أما عن سورة "الزخرف"؛ فختمت بوعيد الذين لا يؤمنون؛ حيث يقول تعالى:﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾[الزخرف:٨٩]، وكذلك سورة الدخان؛ خُتمت بالتهكم بالكافرين في قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾[الدخان: ٥٩]، وسورة "الجاثية" خُتمت بالحديث عن عدم خروجهم من النار، وكون الكبرياء لرب العالمين؛ حيث يقول تعالى:﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية: ٣٥-٣٧].

وسورة "الأحقاف" خُتمت ببيان هلاك الفاسقين؛ في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأحقاف: ٣٥]. فمن مقاصد الختام في "آل حم": وعيد الكافرين، وبيان ما يلحقهم من العذاب الأليم، وعدم خروجهم منه، وكون الأمور إلى الله تصير.

مضامين حوار الآخرة في "آل حم":

حوار الآخرة في "آل حم" يتجه في مجمله إلى الحديث عن أهل النار، ويعرض مشاهد ومواقف من تحاورهم مع خزنة جهنم، والاحتجاج في النار بين الضعفاء والمستكبرين، وتبكيت الملائكة لهم وهم في العذاب، وشهادة سمعهم وأبصارهم وجلودهم عليهم بما كانوا يعملون، وهذا الحوار العجيب بينهم وبين جلودهم، وطلب الكافرين المعذبين من أضلهم من الجن والإنس؛ ليجعلوه تحت أقدامهم في الأسفلين، وعروضهم على النار خاشعين من الذل في صورة مخزية، وندائهم لمالك خازن النار طالبين القضاء عليهم، ورده بأنهم ماكثون، وبيان صورٍ من عَتْلهم في سواء الجحيم، وأمر الإهانة بذوقهم للعذاب الأليم، وخطاب الله لهم بنسيانهم كما نسوا لقاء يومهم هذا، وعرضهم على النار، وبيان جزائهم بعذاب الهون، وإقرارهم بكونه حقًا.

أما عن حوار أهل الجنة؛ فلقد جاء في موضع واحد فقط في سورة "الزخرف" في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزخرف: ٧٢-٧٣].

والغالب في حوار الآخرة في "آل حم" كونه عن أهل النار ومعهم؛ ومرجع ذلك أن أهل الجنة في رضا الله عنهم، وما عرض من ألوان وفنون نعيمهم، وما امتن بهم عليهم سبحانه من سابغ فضله ونعمته؛ على حال واحدة في الراحة والسكينة والسعادة، وإن اختلفت منازلهم في درجات النعيم.

وأهل النار ضد ذلك في مواقعهم من العذاب، ومواقفهم في الحساب؛ مما اقتضى هذا التفنن في التصوير استحضارًا لهذه المواقف والمشاهد؛ رهبة وزجرًا، وتذكيرًا وعظة، وعبرة لأولي الألباب؛ وهو ما اقتضى عرض أطراف من محاوراتهم، ومشاهد من خزيهم وعذابهم، ومواقف من تنصل الأتباع من المتبوعين، ومشاهد من الذل والندم؛ لتكتمل الصورة، ويتضح المشهد، وتجتمع الرغبة والرهبة.

المبحث الثاني: الدقائق البيانية لحوار الآخرة في "آل حم"

اتسم الحوار في مشاهد الآخرة في القرآن الكريم بصورة عامة، وفي "آل حم" خاصة بدقائق أسلوبية وبيانية تتسق مع ما تحمله معاني الحوار ومضامينه من غايات.

وتجدر الإشارة إلى وقوف البحث عند بعض دقائق البيان في بعض المواضع من "آل حم"، وبيان ما تحمله من أسرار النظم المتصلة بتشكيل مشاهد الحوار وعلاقاتها بمواضع الحوار الأخرى في القرآن الكريم؛ لاتساع البحث جدًا في هذا الجانب؛ ولأن غرض البحث اللفت دون الحصر.

ومن هذه الدقائق العامة:

١- المزج الدقيق بين الخبر والطلب:

من الظواهر اللافتة والدقيقة والمستمرة في حوارات الآخرة بصورة عامة، وفي "آل حم" بصورة خاصة: امتزاج الخبر بالطلب في نمط ونسق عجيب؛ حيث تتعاقب هذه الأساليب، وتتلاقى، وتتلاحم في سياقات ومواقف حوارية مختلفة، ينمو فيها المشهد، ويتفاعل، ويتدفق؛ بما يكسبه هذا المزج من حركة للموقف، وإثارة للذهن، ودفع للتأمل، وبيان للمعنى، وتصوير، ووصف دقيق يقلب السمع بصرًا.

وتجدر الإشارة إلى: أن الأسلوب الخبري في سياق حوارات الآخرة في القرآن الكريم بصورة عامة لم يأت منفردًا إلا في أربعة مواضع، ومع ذلك فقد تشرَّب من الطلب معنى الاستفهام. وجاء موضع منها في "آل حم"؛ قُرئ بالاستفهام والخبر؛ في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠] فقوله (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ) " قرئ بالاستفهام والخبر، قال الفراء والزجاج: العرب توبخ بالألف، وبحذف الألف فتقول: أذهبت ففعلت كذا، وذهبت ففعلت كذا، والمعنى في القراءتين: يقال لهم هذا فحذف القول، قال أبو علي: وجه الاستفهام أن هذا النحو قد جاء بالاستفهام نحو ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٣٤]، وحجة الخبر: أن الاستفهام تقرير؛ فهو مثل الخبر، ... فكأنهم يوبَّخُون بهذا الذي يخبرون به ويُبكَّتُون" [(١)].

وهنا أدار أبو علي الفارسي المعنى في توجيه القراءتين على العلاقة القائمة بين الاستفهام والخبر في معنى التقرير؛ وهو ما يلحظ فيه هذا التشرب والمزج بين الخبر والاستفهام في سياق هذا المشهد من حوار الآخرة.

والمواضع الثلاثة الأخرى: قوله تعالى:﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴿١٠٤﴾﴾ [طه: ١٠٤]، وقوله:﴿ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴿١٠﴾﴾ [الحج: ٩-١٠] وقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴿٢٧﴾﴾ **[الملك: ٢٧]**. وهي وإن كانت من الخبر؛ فلقد تشربت معنى الاستفهام المضمر وراء الفصل بين الجمل [(٢)]؛ مما يؤكد طبيعة هذا المزج الدقيق بين الخبر والطلب في سياق حوار الآخرة في القرآن الكريم.

---

(١) الفارسي، أبو علي، الحجة للقراء السبعة، ١٨٨/٦، ١٨٩، والواحدي، التفسير البسيط،١٨٧/٢٠، ١٨٨

(٢) جاء الفصل في موضع سورة طه في قوله تعالى: **(إذ يقول أمثلهم طريقة)**؛ حيث أثارت الجملة الأولى في قوله تعالى **(نحن أعلم بما يقولون)** سؤالًا مضمونه: ماذا يقولون؟ فجاءت الجملة الثانية في قوله: **(إذ يقول)** الآية جوابا عن السؤال. وفي موضع سورة الحج فُصلت الآية الثانية في قوله تعالى: **(ذلك بما قدمت يداك)**؛ لأنها جاءت جوابًا عن سؤال أثارته الآية الأولى في قوله **(ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق)**؛ فكأن سائلًا يسأل، وما سبب ذلك؟ فجاء الجواب بعدها **(ذلك بما قدمت يداك)**. وفي موضع سورة الملك فُصلت جملة **(سيئت وجوه الذين كفروا)**؛ لكونها جاءت إجابة عن سؤال أثارته الجملة الأولى في قوله **(فلما رأوه زلفة)**؛ فكان سائلًا يسأل، ما الذي كان من حالهم لما رأوا العذاب قريبًا؟ فجاء الجواب في قوله: **(سيئت وجوه الذين كفروا)**. والمواضع الثلاثة من دقائق الاستئناف البياني، أو شبه كمال الاتصال كما سماه المتأخرون من البلاغيين. والله أعلم.

وأنتقل إلى مشهد من المشاهد الحوارية التي استدعت هذا المزج في سورة "غافر، وفصلت"؛ للوقوف على دقائق من تشكيلها، وبيان كيف أسهم هذا المزج بين الأساليب الخبرية والطلبية في نمو المشهد الحواري وتدفقه؟

المشهد الحواري الثاني [١] في سورة غافر:

في سياق الحوار بين أهل النار (الضعفاء والمستكبرين)، وحوارهم مع خزنة جهنم طلبًا لتخفيف العذاب؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر: ٤٧–٥٠].

بدأ الحوار بالإخبار بالمضارع عن التحاج بين الضعفاء والمستكبرين؛ فحمل التعبير صورة حية متجددة لهذا التحاج والتدافع في القول، وصورة الخصومة التي تنمو وتتطور كأنها رأي العين؛ وآثر النظم التعبير بـ "التحاج" دون الجدال أو المخاصمة؛ لأن "حقيقة المحاجة أن يطلب كل واحد من المحاجين رد صاحبه عن حجته أو محجته"[٢].

وهذه الصيغة (يتحاجون) لم تأت في أي موضع آخر من مواضع حوار الآخرة في القرآن الكريم في سياق هذا المشهد؛ فهي فريدة في موقعها؛ في سياق حدة الخصومة، والتنصل من التبعة؛ وهي تتلاحم مع سياق سورة "غافر"؛ التي بنيت على: "إقامة أنواع الحجة والبرهان على أهل الكفر والضلال"[٣]، وتلا الإخبار بصورة التحاج والتخاصم، تأكيد المستضعفين لتبعيتهم للمستكبرين بقوله: (إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا)؛ لتأكيد خضوعهم التام، وللاهتمام ببيان أمر هذه التبعية، وجاء الاستفهام في قوله تعالى: (فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ) بما يحمله من معاني اليأس من تخليهم، "واللوم على خذلانهم، وترك الاهتمام بما هم فيه من عذاب "[٤].

وهنا امتزج الخبر بالطلب على نحو نما فيه الحوار من اليأس إلى الطمع في دفع أي شيء من العذاب، وجاء رد المستكبرين مفتتحًا بتأكيد بقائهم جميعًا في العذاب، وتأكيد انقضاء الأمر بحكم الله النافذ بين العباد في قوله: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾.

وخاتمة الرد من المستكبرين، طوت أمر الحساب وما فيه من مراحل وآماد، ومواقف، وحوارات؛ فهو إيجاز جامع لا نرى له مثيلًا إلا في النظم الجليل، وكلتا الجملتين بما بينهما من فصل؛ جواب مؤيس لهم من حصول التخفيف.

صورة المشهد في المواضع الأخرى من القرآن الكريم:

جاءت صورة الحوار بين المستضعفين والمستكبرين في موضع آخر، ولكن بدأ المشهد من بروزهم لله جميعًا، في قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ

(٣) جاء حوار الآخرة في سورة "غافر" في ثلاثة مواضع، وكلها في سياق حوارات أهل النار، مع المؤمنين، والملائكة، ومع خزنة جهنم، وفيما بينهم.

(١) الأصفهاني، الراغب، المفردات، صـ١٠٨، والسمين الحلبي، أحمد بن يوسف، عمدة الحفاظ، ٣٧٥/١، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز ٤٣١/٢

(٢) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز ٤١٠/١، ويراجع حديث البلاقلاني عن مقاصد سورة غافر، وكونها مبنية على لزوم حجة القرآن، والتنبيه على وجه معجزته. إعجاز القرآن، صـ ١٢

(٣) ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير ١٦١/٢٤

عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴿٢١﴾ [إبراهيم: ٢١].

واختلف السياق هنا في الاستفهام في قوله: (فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا) الآية، كما اختلف الجواب –أيضًا– في قوله:(قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ) الآية؛ نظرًا لاختلاف مشهد الحوار؛ فما زالوا في مرحلة البروز لله جميعًا؛ أما في سورة "غافر" فالحوار قد جاء وهم في شدائد العذاب؛ ومن ثم اختلف السؤال والجواب.

كما جاء في موضع آخر من حوارات الآخرة في سياق حوار المستضعفين والمستكبرين –أيضًا–، وهم موقوفون عند ربهم؛ جاء التعبير بـ "رجع القول"، وليس "التحاج" كما في سورة "غافر"؛ حيث يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ [سبأ: ٣١].

"ورجع القول: الجواب. وهي أن يقول بعضهم كلامًا ويجيبه الآخر عنه"(١).

وجاء المضارع (يَرْجِعُ) لاستحضار الصورة، وهم موقوفون عند ربهم؛ فلم يدخلوا النار بعد، وهو حوار الظالمين، وليس حوار الضعفاء والمستكبرين.

أما في سورة "غافر"؛ فالتحاج قائم في النار، وتحت لفح العذاب، بين الضعفاء والمستكبرين؛ ومن ثم أُوثر التعبير بالتحاج، وما يقتضيه من الاحتشاد والدفع لحجة الخصم، بما ينسجم مع المشهد والموقف، والتنصل من الفريقين.

كما جاء مشهد حواري آخر تبرأ فيه الذين اتُّبعُوا من الذين اتَّبعوا عند رؤية العذاب؛ في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: ١٦٦].

وجاء حوار الغاوين ومن أغواهم، وتبرؤهم من عبادتهم لهم، في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴿٦٣﴾﴾ [القصص: ٦٣].

كما جاء في سياق ضلال الكافرين، وإضلالهم لمن اتبعهم، ووقوفهم للسؤال قبل العذاب؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴿٣٢﴾﴾ [الصافات: ٣٢].

وهناك موضع آخر جاء فيه الحوار بين رب العالمين، والكافرين، وهم في النار، وهم يرجعون سبب ضلالهم إلى سادتهم وكبرائهم؛ في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴿٦٧﴾﴾ [الأحزاب:٦٧].

ومشهد التحاج بين الضعفاء والمستكبرين وهم في النار لم يأت إلا في سورة "غافر".

الحوار مع خزنة جهنم:

انتقل النظم القرآني إلى مشهد آخر من حوارهم مع خزنة جهنم؛ حيث طلبوا منهم أن يدعوا ربهم بتخفيف يوم من العذاب؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ بَلَىٰ قَالُواْ فَٱدْعُواْ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾.

ويلمح استمرار التدفق، والمزج الدقيق بين الخبر والطلب في سياق طلبهم من خزنة جهنم؛ وجاء تعريفهم بالاسم الموصول (ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ) زيادة في تمكن وصفهم، ونعيًا عليهم بكونهم في النار؛ وذكر "جهنم" هنا "تهويل وتفظيع، أو لبيان محلهم فيها"، كما أن "جهنم أفظع من النار؛ إذ النار مطلقة وجهنم أفظعها وأشدها"(٢).

(١) الراغب، المفردات، صـ ١٨٩، وابن عاشور، التحرير والتنوير ٢٠٤/٢٢

(٢) الزمخشري، الكشاف ٣٥٢/٥، وابن المنير، الانتصاف ٣٥٢/٥، والطيبي، حاشية الطيبي على الكشاف ٥٢٤/١٣

وأضافوا الضمير إلى المخاطبين من خزنة جهنم في قوله: (ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ)، ولم يضيفوه إلى أنفسهم؛ "لعلهم أجوب دعوة؛ ففيه "ضرب من الإغراء بالدعاء، أي لأنكم أقرب إلى استجابته لكم"[١]،" أي المحسن إليكم بأنكم لا تجدون ألما من النار"[٢]؛ فلقد رأوا أنهم ليسوا أهلًا لهذا الدعاء؛ لبعدهم عن مقام مخاطبة الله تعالى؛ فاستشفعوا بخزنة جهنم، والله أعلم.

و(يَوۡمًا) هنا كناية عن القلة؛ ولذا جاء نكرة للدلالة على طلب تخفيف ولو مقدار يوم، وجاء جواب الخزنة بهذا الاستفهام الممتلئ بالتقرير والتوبيخ والتبكيت، والتنديم والتحسير، مع ما في التصوير بالمضارع (تَأۡتِيكُمۡ) من التجدد [٣]؛ لاستحضار مجيء الرسل، وتذكيرهم لهم مرة بعد مرة.

وفي صورة هذا الرد "إلزام للحجة، وتوبيخ، وأنهم خلفوا وراءهم أوقات الدعاء والتضرع، وعطلوا الأسباب التي يستجيب الله لها الدعوات"[٤].

وفي صورة الجواب الذي بدأ بواو العطف (أَوَلَمۡ) التي "عطف بها خزنة جهنم كلامهم على كلام الذين في النار من قبيل طريقة عطف المتكلم كلامًا على كلام صدر من المخاطب إيماءً إلى أن حقه أن يكون من بقية كلامه ولا يغفله، وهو ما يلقب بـ "عطف التلقين"[٥].

وقد تحقق من خلال هذا العطف المزج الدقيق بين الخبر والطلب، ودفع المشهد الحواري إلى النمو والتدرج، وإظهار ما فيه من تفاعل ولهفة وحسرة من جانب (الذين في النار)، وما يلقاهم من جواب خزنة جهنم بما يحمله من تقرير وتوبيخ وتبكيت، على خلاف ما توقعوا من إجابة طلبهم للتخفيف.

وفي مجيء الفعل (تَكُ) تعبير عن الماضي بصيغة المضارع لتحقق مجيء الرسل؛ فلقد جاءتهم الرسل، ولقد كانوا في فسحة من الوقت، ومع ذلك لم يعتبروا أو يتبعوا؛ ومن هنا رد الخزنة بعد اعتراف أهل النار وإقرارهم بمجيء الرسل بقولهم آمرين لهم: (فَٱدۡعُواْۗ) تأييسًا لهم، وزيادة في تحسيرهم وتنديمهم، وبيان أن لا جدوى ولا نفع من طلب الدعاء، وبعد هذا الطلب جاء الخبر بهذا التذييل الحكيم، والقصر الدقيق في قوله: (وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ) الذي "قد يكون من كلام الخزنة، أو يكون من كلام الله إخبارًا لنبيه، وهو أنسب بما بعده"[٦].

صورة المشهد في المواضع الأخرى من "آل حم":

تطور المشهد الحواري السابق ونما في سورة الزخرف في قوله تعالى: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ٧٧﴾؛ لينتقل إلى مرحلة يأسهم من النجاة وسكوتهم في النار "سكوت يأسٍ" [٧]، وهم مستمرون تحت وطأة العذاب، ثم ينادون "مالكًا" خازن النار طمعًا في القضاء عليهم؛ فيأتيهم الرد بأنهم ماكثون؛ والمشهد هنا فيه نوع امتداد لمشهد العذاب السابق في سورة "غافر"؛ بعد طلبهم من الخزنة أن يدعوا الله بتخفيف يوم من العذاب، واتجه النداء إلى "مالك" رأسًا بطلب القضاء عليهم، بعد يقينهم بأن العذاب لا يُفَتَّر عنهم؛ فنما المشهد وانتقل من طلب التخفيف للعذاب في سورة "غافر"، إلى طلب القضاء عليهم في سورة "الزخرف"؛ كما انتقل من

(٣) الزمخشري، الكشاف ٣٥٣/٥، والجمل، سليمان، حاشية الجمل ٤٨٤/٦، وابن عاشور، التحرير والتنوير ١٦٤/٢٤

(٤) البقاعي، نظم الدرر ٥٢٢/٦

(١) البقاعي٥٢٢/٦، ٥٢٣

(٢) الزمخشري، الكشاف ٣٥٣/٥

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير ١٦٥/٢٤

(٤) حاشية الشهاب الخفاجي ٢٧٢/٨، وحاشية الجمل على الجلالين ٤٨٤/٦

(٥) أنوار التنزيل ٩٦/٥، وحاشية الجمل على الجلالين ١٠٩/٧

طلب الدعاء من خزنة جهنم، إلى نداء "مالك" طلبًا للقضاء عليهم.

صورة الحوار بين الخزنة وأهل النار في المواضع الأخرى من القرآن الكريم:

جاء الحوار بين الخزنة وأهل النار في سورة "الزمر"، وسورة "الملك"، مع اختلاف في بداية المشهد، وابتداء الحوار من الخزنة، مع استدعاء المشاهد الحوارية لهذا المزج الدقيق بين الخبر والطلب كما تقدم في بداية المبحث الثاني؛ ففي سورة "الزمر" ابتدأ الحوار من الخزنة لأهل النار، وقد فتحت أبوابها؛ حيث يقول تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ٧١﴾ [الزمر: ٧١].

فبدأ السؤال من الملائكة عن مجيء الرسل، وتلاوتهم لآيات الله، وإنذارهم لهم؛ فجاء أكثر تفصيلًا من سورة "غافر"؛ فهم ما ذاقوا العذاب بعد، وإنما قد فتحت أبوابها لاستقبالهم، وهو مشهد سابق لما في سورة "غافر"، وجاء الخبر بعد جوابهم بإحقاق العذاب على الكافرين.

وفي سورة "غافر" جاء الطلب مبتدئًا من أهل النار طلبًا لدعاء الخزنة لهم أن يخفف الله عنهم يومًا من العذاب، وجاء سؤال الخزنة هناك موجزًا حول مجيء الرسل بالبينات في قوله ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ﴾ في سياق الرد عليهم وهم في دركات العذاب.

أما في سورة "الملك" في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ٨﴾ فجاء السؤال – أيضًا– مبتدئًا من الخزنة لكل فوج يلقى في النار؛ فلكل مشهد حواري زاويته الخاصة في ابتدائه وانتهائه.

ومشهد سورة "غافر" يتميز بتغطيته لمساحة واسعة من حوار أهل النار مقابلة بالمواضع الأخرى في سورة "الزمر، والملك"؛ فعرض مشاهد من حوار الضعفاء والمستكبرين، وحوارهم مع خزنة جهنم، وهم في دركات العذاب.

المشهد الحواري الأول [١] في سورة "فصلت":

صورة الحوار بين أهل النار وجلودهم:

من المواضع التي امتزج فيها الخبر والطلب في "آل حم": قوله تعالى:﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ١٩ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٢ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ٢٣﴾ [فصلت: ١٩-٢٣] " لما ذكر حالهم في الدنيا، وأشار إلى حال الآخرة أتبعه تفصيل ذلك، فقال:(وَيَوْمَ) "[٢]، ولقد طوى هنا كلامًا كثيرًا ليركز على صورتهم في ذلك اليوم، التي جاء التعبير فيها بـ (يُحْشَرُ) الذي بني للمجهول، و(يُوزَعُونَ)؛ ليصور لنا هذا المشهد للكفار من الأولين والآخرين الذي يتوالى فيه الحشر، ويتتابع فيه الجمع، و"يحبس أولهم على آخرهم"[٣] في صورة تمنع التفرق؛ "كناية"[٤] على هذه الكثرة الكاثرة في

(١) جاء حوار الآخرة في ثلاثة مواضع من سورة " فصلت": الحوار مع الجلود، وحوار أهل النار مع رب العالمين، وحوار رب العالمين معهم وندائه إياهم.

(٢) البقاعي، نظم الدرر ٥٦٣/٦

(٣) الزمخشري، الكشاف ٣٧٨/٥، والبيضاوي، أنوار التنزيل ٦٩/٥

(٤) القونوي، عصام الدين، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي ١٤٧/١٧

أهل النار! ولتأكيد هذه الصورة، وتثبيتها في القلب، قدَّم المسند إليه على الخبر الفعلي (فَهُمۡ يُوزَعُونَ)؛ لتأكيد هذه الرؤية حتى كأننا نراها أمام أعيننا، ونستحضر صورة هذا الجمع الكبير.

ويتواصل الإخبار عن هذا المشهد بقوله (حَتَّىٰٓ) التي طوت وراءها زمنًا ومشاهد ومواقف من بداية الحشر، وما تبعه من حبسهم، ثم انصرافهم إلى النار؛ ليسلط الضوء على هذا المجيء المفزع، والذي بدأ بشهادة سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون، وجاء التعبير بالماضي في (شَهِدَ) لأنه أمر واقع لا محالة؛ فكل أخبار الغيب عن يوم القيامة واقع بالنظر إلى علم الله الذي تتلاشى فيه كل الأزمنة.

ويأتي هذا المزج الدقيق بين الخبر والطلب من خلال هذا العطف اللطيف لجملة (وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ) على جملة الجواب (شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم)؛ لما تحمله هذه الشهادة العجيبة والغريبة التي لم يتوقعها أهل النار؛ يأتي الاستفهام الذي توجه إلى سبب شهادة الجلود وحدها تعجبًا وتوبيخًا لها؛ فتوجهوا بالسؤال إلى الجلود دون السمع والأبصار مع أنها قد شهدت عليهم أيضًا؛ "ولعل قصر السؤال على الجلود لأنها أعجب منها؛ إذ ليس شأنها الإدراك بخلاف السمع والأبصار، أو أنه من باب الاكتفاء كقوله تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] الآية"(١).

ومن اللافت أن جواب الجلود في قوله (قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ) قد يكون جوابًا على السؤال إذا كان السؤال من أهل النار لتوبيخ الجلود على شهادتها، ويكون جوابهم "ما نطقنا باختيارنا حتى نستحق توبيخكم"(٢)، وقد يكون السؤال للتعجب من شهادتها، ويكون الجواب أيضًا مناسبًا للسؤال ببيان قدرة الله في إنطاقها. ويبدو أن أهل النار في خضم الموقف وشدته قد ذهلوا عن الآية العجيبة في إنطاق هذه الجلود، وشغلوا بمجرد السؤال عن سبب الشهادة، غافلين وشاردين عن الآية العجيبة في هذا الإنطاق، والذي هو من قدرة الله كما يظهر في إجابة الجلود؛ فجاء السؤال والجواب على هذه الصورة منسجمين مع شدة الموقف وهيبته.

صورة المشهد في المواضع الأخرى من "آل حم":

جاء الحوار هنا في سورة "فصلت" –بعد الحوار في سورة "غافر"–، والذي جاء في ثلاثة مواضع منها، تمثلت في طلب أهل النار من الله (تعالى) سبيلًا إلى الخروج في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ١١ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡۖ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ١٢﴾

والموضع الثاني: حوار التحاج والتخاصم بين الضعفاء والمستكبرين، والحوار مع خزنة النار كما مضى، والموضع الثالث في سؤالهم عن شركائهم، وذلك في قوله تعالى:﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ٧١ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ٧٢ ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ٧٥﴾.

(١) القونوي، عصام الدين، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي ١٤٨/١٧

(٢) البقاعي، نظم الدرر ٥٦٤/٦، والقوجوي، محمد، حاشية شيخ زاده ٣٧٨/٧، والقونوي، عصام الدين، حاشية القونوي ١٤٨/١٧

جاء حوار الجلود والسمع والأبصار بعد ذلك في سورة "فصلت"؛ ليتجلى فيه مشهد جديد من مشاهد الحوار العجيبة، الغامرة بآيات القدرة؛ لينضم إلى ما سبق من المشاهد التي جاءت في سورة "غافر"؛ ليلتقي مع ما بعده من مشاهد الحوار في سورة "فصلت"، وهو طلب أهل النار من أضلهم من الجن والإنس ليجعلوهما تحت أقدامهم؛ وذلك بعد أن قص علينا حوار شهادة الجلود والسمع والأبصار؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٢٩﴾؛ وليلتقي مع المشهد الأخير في سورة فصلت، وهو نداء الله –تعالى– لهم وسؤالهم عن شركائه المزعومين؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿۞ إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ٤٧ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ٤٨﴾.

وهنا بعد ما تقدم من شهادة الجلود والسمع والأبصار، وطلبهم أن يجعلوا من أضلهم من الجن والإنس تحت أقدامهم، وغياب ما كانوا يدعون ويعبدون من شركائهم من دون الله؛ أيقنوا أن لا مفر ولا محيد من عذاب الله؛ فتدرجت مشاهد الحوار واتسقت في السورة على نسق عجيب وفريد؛ بدأ بشهادة الجلود والسمع والأبصار عليهم، وطلبهم الانتقام ممن تسبب في إضلالهم، وعدم منفعة ما دعوه وعبدوه من دون الله، ثم اليقين الأخير أن لا مفرد ولا محيد من العذاب الأليم.

صورة الحوار في المواضع الأخرى من القرآن الكريم:

لم يأت مشهد آخر لهذا الحوار العجيب بين أهل النار وجلودهم، وشهادة سمعهم وأبصارهم وجلودهم عليهم في القرآن الكريم، وإنما جاء في مشهد حواري آخر، أن الله يختم على أفواههم، وتكلمه سبحانه أيديهم، وتشهد أرجلهم بما كانوا يعملون؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥﴾ [يس: ٦٥]. كما جاء بيان شهادة ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم، في سياق الحديث عن الذين يقذفون العفيفات الغافلات المؤمنات؛ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾ [النور: ٢٣-٢٤]، وخصوصية حوار سورة فصلت في هذه الشهادة العجيبة من الجلود والسمع والأبصار بعد بيان إعراض الكافرين عن سماع الحق في مطلع السورة؛ حيث يقول تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ٥﴾ [فصلت: ٥]، وبعد بيان آيات الله في خلق السماوات والأرض، وبعد إنذار الكافرين المعرضين أن يلحقهم ما لحق عاد وثمود، ثم الانتقال إلى مشهد الحوار الذي جاء نتيجة لما تقدم من الإعراض والتكذيب.

وقد جاء الحوار في ثلاثة مواضع من السورة متسقًا مع مقاصدها التي تتحدث عن إعراض الكافرين، وبيان مصائر المكذبين، "والحجة والبرهان على وحدانية الله، وإظهار الآيات الدالة على الذات والصفات، وعلم الله المحيط"(١).

(١) البقاعي، برهان الدين، مصاعد النظر ٤٤٣/٢، وبصائر ذوي التمييز ٤١٣/١، ٤١٤

٢- التصوير المرئي واستحضار المشهد:

اتسم تصوير حوارات الآخرة في القرآن الكريم بمشاهده الممتلئة بالحياة والحركة، والنمو، والتفاعل الذي يتجاوز حدود الزمان والمكان؛ ويتخطى حاجز الغيب لينقل هذه المشاهد؛ وكأنها واقع؛ نحياه، ونظل مشدودين إليه بأبصارنا وقلوبنا، وهو من مبتكرات القرآن القصصية في سياق عرض وتصوير أحوال الآخرة كما تقدم في مقدمة البحث. ولم يقف التصوير هنا عند الصور المعهودة من التشبيهات [١]، والاستعارات، وغيرها، بل تجاوز ذلك إلى أفق آخر نرى تصوير مشاهده بأفعال الرؤية المضارعة: "ولو ترى... ترى... تراهم... يرى"، لكل من يتأتى منه الرؤية، والتي تستحضر الموقف، وتمنحه نموًا وتدفقًا، وتجددًا واستمرارًا.

كذلك النداء بأدوات مختلفة، تمثلت في "يا"، وحذف أداة النداء، وصيغ الأفعال: "نادى... ينادون... يناديهم... نادوا..."، والتي تكشف عن المسافات والحواجز الفاصلة، والبعد المكاني بين أهل النار وأهل الجنة [٢]، في إطار من المزج الدقيق بين الخبر والطلب كما تقدم في بداية المبحث الثاني.

وهذا التصوير المرئي له حضوره اللافت في أحوال أهل النار، في مواقف العرض ومقدمات الحساب، وعند ندائهم للاستغاثة، وصرخات العذاب، وتنصل المتبوعين من الأتباع، إلى غير ذلك مما يضيق المقام عن حصره.

ومشهد الآخرة عظيم، ومشهود، ومجموع له الناس، كما تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ١٠٣﴾ [هود: ١٠٣]، وقال: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٣٧﴾ [مريم: ٣٧] وقال: ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ٣﴾ [البروج: ٢-٣].

أما حوارات أهل الجنة في القرآن الكريم؛ فيغلب عليها الوصف بصورة عامة؛ في سياق بيان نعيمهم، وراحة بالهم، وتحاورهم حول حالهم في الدنيا في الإشفاق من العذاب، وما منَّ الله –تعالى– به عليهم من النعيم المقيم؛ ومن هنا؛ فلم يأت في هذه المشاهد التصوير بأفعال الرؤية على نحو ما سبقت الإشارة إليه في حوارات أهل النار.

وقد سبق أن حوارات أهل الجنة قد جاءت في موضع واحد من سورة الزخرف؛ في قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧٢ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٣﴾.

أما بقية مواضع الحوار الأخرى؛ فتدور حول مشاهد وحوارات أهل النار، وما فيها من ألوان البؤس والشقاء والعذاب.

المشهد الحواري في سورة "الشورى":

جاء حوار الآخرة في موضع واحد من سورة "الشورى"؛ في سياق الحديث عن رؤية الظالمين للعذاب، وعرضهم على النار في صورة خاشعة ذليلة؛ في قوله تعالى:

---

(١) من مواضع حوار "آل حم" التي اشتملت على التشبيه، والوصف الدقيق لعذاب الأثيم: قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ٤٣ طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ٤٤ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ٤٥ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ٤٦ خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ٤٧ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ٤٨ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ٤٩ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ٥٠﴾ [الدخان: ٤٤-٥٠].

(٢) جاء النداء في حوارات "آل حم" بالفعل "ينادون" في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ١٠﴾ [غافر: ١٠] ، كما جاء بحذف حرف النداء في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٢٩﴾ [فصلت: ٢٩]، وجاء بالفعل "يناديهم" في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ٤٧﴾[فصلت: ٤٧]، كما جاء بـ "يا" في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ٣٨﴾ [الزخرف: ٣٨]، وجاء بالفعل "نادوا"، و "يا" في قوله: ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ٧٧﴾ [الزخرف: ٧٧].

﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ٤٤ وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ ٤٥﴾ الآية.

وصورة المشهد في قوله (وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ) وما فيها من العطف على قوله (وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ) قد طوت المراحل كلها من الدنيا إلى الآخرة في إيجاز عجيب.

وجاء تصويرهم عند رؤية العذاب بفعل الرؤية (تَرَى)؛ والذي جاء مضارعًا لاستحضار هذا المشهد للوجوه المكفهرة العابثة؛ وهو ما ينسجم مع هذا الجمع الهائل من الظالمين من بني آدم؛ وهو أوفى ما تتسع معه الصورة، ويتناسب مع امتداد المشهد وتراحبه؛ فالرؤية لكل من يتأتى منه الرؤية، هي الكفيلة باستحضار الموقف؛ "فالرؤية في هذه الآية رؤية عين"(١).

ومن اللافت: التعبير بالماضي (رَأَوُاْ) أيضًا الذي يفيد "تحقق أمر الرؤية ووقوعه" (٢)؛ وهو ما ينسجم مع الفعل (تَرَى) الذي مضى. وأكمل مشهد الرؤية الممتدة لخشوع الذلة الفعل: (وَتَرَىٰهُمۡ)؛ والذي أعيد مضارعًا لاستحضار واستمرار هذه الرؤية، مع الإضافة لضمير الغائب وما تحمله من تأكيد لمشهد الذلة؛ "وقد أعيد الفعل (تَرَى) للاهتمام بهذه الرؤية وتهويلها"(٣).

والمشهد كله رؤية كاملة وممتدة لهؤلاء الظالمين، وقد التحم بالمضارع (يُعۡرَضُونَ) الذي جاء حديثًا عن النار على سبيل الاستعارة. وينمو المشهد، ويستمر في تدفقه وتجدده في التعبير بالفعل (يَنظُرُونَ) وما يحمله من مسارقة النظر، من الطرف الخافت الذليل، " كما ترى الذي يتيقن أن يقتل؛ فإنه ينظر إلى السيف كأنه لا يقدر على أن يفتح أجفانه عليه ويملأ عينيه منه كما يفعل في نظره إلى المحبوبات"(٤)

وما أروع الاحتراس في (خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ)؛ فليس خشوعهم عن إيمان؛ وإنما هو خشوع الذلة، وهو حال من (يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا)!!

صورة الحوار في المواضع الأخرى من القرآن الكريم:

مشهد سورة "الشورى"، وما فيه من أفعال الرؤية البصرية المتجددة والمتكررة للظالمين، لم يتكرر في القرآن الكريم. وقد جاء فعل الرؤية في سورة "الأنعام" عند الحديث عن المشركين حالة كونهم موقوفين على النار، وحالة وقوفهم على ربهم؛ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧﴾، وقوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٠﴾.

كما جاء في سورة "السجدة" لتصويرهم وهم ناكسو الرؤوس؛ في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ ١٢﴾ الآية.

وفي سورة "سبأ" في سياق كونهم موقوفين عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول، في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ ٣١﴾، وفعل الرؤية -فيما سبق- جاء بـ (وَلَوۡ تَرَىٰٓ)، وقد حذف فيها جواب (لو) والتقدير: "لرأيت هؤلاء، أو لرأيت أمرًا فظيعًا، وحذف الجواب أبلغ؛ لأن المخاطب يترك مع غاية تخيله"(٥).

(١) ابن عطية، أبو محمد عبد الحق، المحرر الوجيز ٤١/٥

(٢) تفسير أبي السعود ٧١/٥، وحقي، إسماعيل، روح البيان ٣٧١/٨

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير ١٢٥/٢٥

(٤) الزمخشري، الكشاف ٤١٩/٥، وفخر الدين، تفسير الرازي ١٨٣/٢٧

(٥) ابن عطية، المحرر الوجيز ٢٨١/٢، والبيضاوي، أنوار التنزيل ١٥٨/٢، ٢٢١/٤

أما في سورة "الشورى" فجاء برؤية صورتهم رأي العين، في خشوع الذل، وهم يسارقون النظر خفية. والمواضع الأخرى لم يتكرر فعل الرؤية حالة كونهم موقوفين على النار وعلى ربهم، وقد نكسوا رؤوسهم.

أما في سورة "الشورى"؛ فلقد تقدم المشهد ونما وتجدد؛ وتكرر فعل الرؤية مضارعًا؛ وجاء ماضيًا لتحققه، كما تضمن حوار المؤمنين تبكيتًا للظالمين؛ في قوله: (وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ)، وهو ما لم يأت في مواضع الحوار الأخرى.

ومن اللافت جدًا: أن الحديث عن رؤية الظالمين بفعل الرؤية (تَرَى) لم يأت على هذا النحو في القرآن الكريم إلا في موضعين من سورة "الشورى":

الأول: سياق الحديث عن إشفاقهم يوم القيامة مما كسبوا، وبيان كون المؤمنين في روضات الجنات؛ في قوله تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٢٢﴾.

الثاني: سياق الحوار حين رؤيتهم للعذاب، وعرضهم على النار، وهم خاشعون من الذل كما مضى في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ الآية؛ وهو مما يلتقي مع محاور من السورة ومقاصدها؛ من بيان "ذل الظالمين في عرصات القيامة"[١].

وقد جاء فيها الحديث عن الظالمين من الكافرين، ومن تجاوز حدود الله في أربعة مواضع غير ما تقدم، وهي الآيات:(٨، ٤٠، ٤١، ٤٢).

المشهد الحواري في سورة الجاثية:

من صور الحوار الفريدة التي لم تتكرر في القرآن الكريم، وجاءت بفعل رؤية المضارع لاستحضار المشهد: الصورة المرئية للأمم الجاثية، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٢٧ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗۚ كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٨ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٩﴾

وهنا ابتدأ المشهد الحواري ببيان مشهد الأمم جميعًا، وقد صدر بالفعل (تَرَىٰ)؛ حيث "الرؤية هنا رؤية العين"[٢]، لكل من يتأتى منه الرؤية.

ومما زاد هذا الموقف ظهورًا وبيانًا أفعال المضارعة التي ملأت أركان المشهد: "**تَرَىٰ**... تُدعَىٰٓ... تُجزَونَ... تَعمَلُونَ... يَنطِقُ... نَستَنسِخُ ... تَعمَلُونَ"؛ وقد منحت المشهد حركة وتدفقًا، ارتبط فيه الماضي والحاضر، والمستقبل.

وقد طُوي فيه الزمان والمكان، ونقل فيه المتأمل من ماضي الدنيا وما كان فيها من عمل إلى ساحة العرض والجزاء؛ ليتصور هذا المشهد الغيبي ويستحضره في صورة فريدة لا يمكن أن تكتمل وتستقر في الذهن والعقل، والقلب؛ إلا من خلال هذا النسق الفريد.

ومشهد الأمم الجاثية لم يتكرر في القرآن الكريم، وصورته متسعة جدًا؛ فقد جمعت كل الأمم، وليس فئة دون فئة ممن سبق الحوار معها أو حولها.

وهي صورة تذهب نفس الرائي في تصور رؤيتها كل مذهب؛ ولا فرق في ذلك بين المؤمن وغير المؤمن؛ فالمشهد هنا قد امتلأ بالخضوع التام.

(١) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز ٤١٨/١

(٢) الهمذاني، المنتجب، الفريد في إعراب القرآن المجيد ٥٩٣/٥، والسمين الحلبي، الدر المصون، ٦٥٤/٩

و"الجثو" هنا عام للمؤمن والكافر، و"الجاثي" المؤمن قد يشارك المبطل في هذه الحال إلى أن يظهر كونه محقًا"(١).

وقد بينت الآيات بعد ذلك دخول المؤمنين في رحمة الله؛ حيث يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ٣٠﴾.

والتعبير بـ (جَاثِيَةً) لم يأت إلا في هذا الموضع من القرآن الكريم، ومعناه متسع باتساع المشهد الذي يحمله ويصوره، وفيه تأويلات متقاربة لا يأبى النظم اجتماعها؛ فهي:" مجتمعة من الجَثْوَةِ، وهي الجماعة، أو باركة، مستوفزة على الركب، غير مطمئنة ومتميزة، وخاضعة"(٢)؛ فهي مجتمعة، وباركة على ركبها بروك الذل والخضوع، وجالسة جلسة لا اطمئنان فيها؛ وهو ما يتلاحم وينسجم مع رهبة وفزع المشهد العظيم!

وقد جاء التعبير بـ(جِثِيًّا) في سياق الحديث عن حشر الكافرين والشياطين حول جهنم، وجثو الظالمين فيها على ركبهم؛ حيث يقول تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحۡشُرَنَّهُمۡ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحۡضِرَنَّهُمۡ حَوۡلَ جَهَنَّمَ جِثِيّٗا ٦٨﴾ [مريم: ٦٨] ويقول: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ٧٢﴾ [مريم:٧٢].

وصورة المشهد (غير الحواري) صورة خاصة بالكافرين، وهم جاثون مع الشياطين حول النار، وصورة الظالمين وهم جاثون على ركبهم في النار، وقد جاءت في سياق بيان جزاء الكافرين، وهي صورة خاصة تخالف مشهد سورة "الجاثية" في عمومه واتساعه.

وعند النظر في تدفق المشهد الحواري بعد الحديث عن جثو الأمم، وبيان أن كتابها ينطق عليها بما عملت، واستنساخ الملائكة لذلك؛ نجد المشهد الحواري بعد أن يمهد بدخول المؤمنين في رحمة الله، يتجه إلى الذين كفروا بالحوار؛ حيث يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ٣١ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ٣٢ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٣ وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٣٤ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٣٥﴾ [الجاثية: ٣١-٣٥].

ويلحظ في هذا المشهد الحواري الصمت المطبق من الكافرين، وهو من مواقف التبكيت والإذلال التي يمتنعون فيها عن الكلام؛ حيث ما زالوا في ساحات العرض، وقد غادر المؤمنون إلى رحمة الله، وأما الذين كفروا فقد مكثوا لحوار الإذلال؛ لينتقلوا بعد ذلك إلى الجثو في النار في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ٧٢﴾ [مريم: ٧٢] كما تقدم.

وهنا يلتقي المشهد الحواري بصورته الحية والنامية مع مقاصد السورة واسمها؛ حيث سميت بـ "الجاثية، والشريعة"، ومن مقاصدها: بيان ما أعده الله من العذاب لكل أفاك أثيم، وبيان إيتاء الكتاب لبني إسرائيل، وكون النبي (ﷺ) على شريعة من الأمر، وبيان تكذيب

(٣) الماوردي، تفسير النكت والعيون، ٢٦٧/٥، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، ٣٧٠/١٧

(١) الفراء، معاني القرآن، ٤٨/٣، والماوردي، النكت والعيون ٢٦٧/٥، والزمخشري، الكشاف ٤٨٩/٥، وابن الجوزي، زاد المسير ٣٦٤/٧، والبيضاوي، أنوار التنزيل ١٠٩/٥

الكافرين، وأن الله سيجمعهم إلى يوم القيامة لا ريب فيه، وبيان خسران المبطلين، ثم ما انتهت به السورة من المشهد الحواري الممتد من الأمم الجاثية إلى نهايتها.

والمشاهد الحوارية في الآخرة لا حصر لها؛ فهي ممتدة بامتداد الخليقة وأعمالها... وإنما يعرض القرآن الكريم مشاهد ومواقف منها؛ تحمل العظة والعبرة، والخوف والرهبة لكل من يتأتى منه الرؤية والفكرة.

٣- صور النداء يوم "التنادي":

من أسماء يوم القيامة في القرآن الكريم "يوم التناد"، كما جاء على لسان مؤمن آل فرعون في قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴿٣٢﴾﴾ [غافر: ٣٢-٣٣].

وهذا الاسم في سورة "غافر" من "آل حم"، لم يتكرر في القرآن الكريم، وهو عنوان هذا اليوم؛ وهو ما يلتقي ويتناغم مع شدائده، ومواقفه؛ فهو يبدأ بنداء المنادي الذي جاء في موضع وحيد في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾ [ق: ٤١] وهو "أن يأمر الله -تعالى- ملكًا؛ فينادي بالحشر، واجتماع الخلق لفصل القضاء، وينفخ في الصور يوم الخروج من القبور" (١).

وأصداء النداء تتجاوب في هذا اليوم من كل صوب وحدب؛ فهناك نداءات الله (تعالى) لأهل الجنة بأن أورثوها بما كانوا يعملون تكريمًا، ونداءاته سبحانه لأهل النار في مواقف مختلفة قبل العذاب وأثنائه؛ تبكيتًا وتوبيخًا، ونداءات الملائكة للمؤمنين تبشيرًا، ولأهل النار تحسيرًا وتأييسًا، ونداءات أهل النار من الأتباع للمتبوعين، ونداء الكافرين للمؤمنين طلبًا لبعض النعيم ... مما يضيق المقام عن حده وحصره.

(١) الماوردي، تفسير النكت والعيون ٣٥٨/٥، والبيضاوي، أنوار التنزيل ١٤٤/٥

والنداء ظاهرة لافتة على ألسنة أهل النار بين طلب النجاة من العذاب أو الخروج من النار، أو لطلب عقاب من تسبب في دخولهم النار، أو نداء أهل الجنة بأن يفيضوا عليهم مما رزقهم الله، أو نداء مالك خازن النار؛ طلبًا للقضاء عليهم ... في مشاهد يختلط فيها الجزع بالألم والندم؛ والنداء هو ما ينسجم مع صرخات الاستغاثة، وشدائد اليوم العصيب.

ومن صور النداء اللافتة: المواقف التي يُصَوَّرُ فيها البعد المكاني لأهل النار في دركات الجحيم، والحواجز الفاصلة بينهم وبين أهل النعيم.

وهذا الأفق من التصوير نجده في "آل حم"، وما يلتقي معها من بعض مواضع الحوار الأخرى في القرآن الكريم.

وجاء النداء في "آل حم" بصيغة فعل النداء: "ينادون... يناديهم... نادوا..." ومنه ما جاء بـ "يا"، ومنه ما جاء بحذف أداة النداء؛ بما يتسق مع كل حوار وموقف، ومن صور ذلك:

المشهد الحواري الأول في سورة "غافر":

جاء النداء بالفعل (يُنَادَوْنَ) في المشهد الحواري الأول في سياق النداء للكافرين من قبل الله (تعالى)، أو ملائكة العذاب، وبحذف حرف النداء، في سياق ندائهم لله (تعالى) طلبًا لأي سبيل للخروج؛ في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴿١١﴾﴾.

وجاء الفعل (يُنَادَوْنَ)؛ لاستحضار صورتهم البعيدة في غياهب العذاب، وبيان أن مقت الله وبغضه لهم في الدنيا حين دعاهم إلى الإيمان على ألسنة الرسل وقد أبوا أشد من مقتهم وبغضهم لأنفسهم الآن، وهم في العذاب.

والفعل ببنائه للمفعول؛ قد صور بعدهم المكاني في دركات العذاب، واستمر نماء المشهد بالربط بين النداء لهم في النار وبين دعوتهم إلى الإيمان وكفرهم في الدنيا؛ فاستحضر قصة ومشهد الدعوة التي دعاهم إليها الأنبياء في قوله: (تُدْعَوْنَ)، وما تحمله من هذا المشهد المتكرر والمتجدد [١]، مع بناء الفعل لغير المعلوم؛ لتذهب النفس في تصور الدعوة وإلحاح الدعاة فيها كل مذهب؛ وصورة كفرهم في قوله: (فَتَكْفُرُونَ).

وقد صُدِّرَ بهذه (الفاء) العجيبة التي تشير إلى مسارعتهم في الكفر مع تكرر كل دعوة، بدون أدنى فكرة؛ "دون أن يتمهلوا مهلة النظر والتدبر فيما دعوا إليه"[٢]؛ فربط المشهد بين الصورة الحاضرة لندائهم في العذاب، واستدعاء قصتهم في الكفر والإنكار في الدنيا.

وجاء جواب النداء من المعذبين في سياق الحوار نفسه، وقد طويت فيه الأداة في قوله: (رَبَّنَآ)؛ لضيق الموقف، وسؤالهم استعطافًا وذلًا عن أي سبيل كان للخروج...

وهو حذف تسلك النفس في رؤيته وتصوره كل سبيل.

المشهد الحواري الثالث في سورة "فصلت":

جاء الحوار –أيضًا–، بصيغة المضارع (يُنَادِيهِمْ) لاستحضار صورة هذا النداء، والفعل هنا مبني للمعلوم، بخلاف الفعل في مشهد سورة "غافر"؛ يقول تعالى: ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴿٤٧﴾﴾

وقد جاء الفعل هنا في صورة المعلوم ليس فقط لاستحضار صورة النداء؛ وإنما لبيان كونه صادرًا عن رب العالمين في مقام سؤالهم "تقريعًا وتهكمًا بهم" [٣]، وإقرارهم الآن أنه ليس هناك أحد منهم يشهد أن مع الله شريكًا.

وهنا انتقال عجيب بين صورة المشهد الذي تخرج فيه الثمرات من أكمامها، وعلمه سبحانه بما تحمل كل أنثى وما تضع، وهذه الصورة العجيبة المتجددة والمتكررة للخلق، وصورة نداء هؤلاء الكافرين يوم القيامة، وقد أعرضوا عن هذه الآيات الحية الناطقة بقدرة الله ووحدانيته. وهو مشهد ممتد ما بين إبداع الخلق وآيات الوحدانية إلى يوم البعث والحشر، ونداء من كفر بهذه الآيات، وقد عرضه القرآن، وربط بين المشهدين والموقفين في سياق هذا الحوار والنداء من الحق لهؤلاء الكافرين، وقد طوى آفاق كثيرة وممتدة من مواقف كفرهم بهذه الآيات، وحضور هذا الموقف للسؤال والحساب في إيجاز الإعجاز!

صورة المشهد في المواضع الأخرى من "آل حم":

جاء النداء بالماضي (نَادَوْاْ) في سورة الزخرف في قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴿٧٧﴾﴾ في سياق حوار أهل النار مع "مالك" خازن النار؛ وجاء بصيغة الماضي "إما لأن إبلاسهم في عذاب جهنم وهو اليأس يكون بعد أن نادوا يا مالك وأجابهم بما أجاب به، وذلك إذا جعلت جملة "ونادوا" حالية، وإما لتنزيل الفعل المستقبل منزلة الماضي في تحقيق وقوعه تخريجًا للكلام على خلاف مقتضى الظاهر"[٤].

ويلحظ التناسب بين مواضع الحوار الماضية في "آل حم" ابتداءً بالمشهد الحواري الأول في سورة غافر، وما فيه من نداء الحق أو الملائكة لأهل النار، وهم في العذاب

(١) الألوسي، روح المعاني ٣١/٢٤

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير ٩٦/٢٤

(٣) الزمخشري، الكشاف ٣٨٧/٥

(٤) ابن عاشور، التحرير والتنوير ٢٥٩/٢٥

حول أن مقت الله وبغضه لهم في الدنيا حين دعاهم إلى الإيمان على ألسنة الرسل وقد أبوا أشد من مقتهم وبغضهم لأنفسهم الآن، وهم في العذاب، وطلبهم سبيلًا للخروج.

والمشهد الثاني للحوار في سورة "فصلت" ببيان كون النداء صادرًا عن رب العالمين في مقام سؤال أهل النار تقريعًا وتهكمًا بهم، وإقرارهم الآن أنه ليس هناك أحد منهم يشهد أن مع الله شريكًا.

والمشهد الثالث في سورة " الزخرف" وندائهم لـ "مالك" طلبًا لقضاء الله عليهم، ورده بمكثهم في العذاب. وهي مشاهد ومواقف جاء فيها النداء بالأفعال: (يُنَادَوْنَ)، (يُنَادِيهِمْ)، (نَادَوْاْ) مصورًا لمواقف مختلفة من عذاب أهل النار، باستحضار صورتها، وتأكيد وقوعها، مع تحقيق التنوع في بيان المواقف بما يلتقي مع تحقيق غاية العظة والعبرة.

صورة الحوار في المواضع الأخرى من القرآن الكريم:

جاء التعبير بفعل النداء (يُنَادِيهِمْ) في سياق الحوار بين رب العالمين وأهل النار في ثلاثة مواضع أخرى من سورة " القصص": في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴿٦٢﴾﴾، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴿٦٥﴾﴾، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴿٧٤﴾﴾. ويختلف مشهد سورة "غافر" السابق في فعل النداء في بنائه للمفعول كما تقدم، والذي لم يتكرر في سياق الحوار في القرآن الكريم، وقد جاء في سياق محاورتهم، وهم في العذاب يبحثون عن سبيل للخروج. كما أن ذكر يوم التنادي في سورة "غافر"، لم يتكرر في أي موضع آخر من القرآن الكريم، وهو ما يتسق مع بعض مقاصد السورة، وحوارات أهل النار في مواضعه الثلاثة منها.

ومشهد الحوار السابق في سورة "فصلت" قد جاء فعل النداء بـ (يُنَادِيهِمْ)، مبنيًا للمعلوم، وسؤالهم عن الشركاء وإجابتهم بإقرارهم الآن أنه ليس هناك أحد منهم يشهد أن مع الله شريكًا.

وهو يلتقي في صيغة النداء (يُنَادِيهِمْ) مع مشاهد الحوار في سورة "القصص"، ويختلف في جواب النداء؛ لاختلاف موقف الحوار؛ حيث الموضع الأول من سورة "القصص" حول نداء الحق لهم وسؤاله لهم عن شركائه المزعومين، وقد جاء جوابهم فيه بتبرؤ المتبوعين من عبادة التابعين.

والمشهد الثاني من ندائهم حول سؤالهم عن إجابتهم للمرسلين، وبيان خفاء الحجج عليهم؛ فلا يسأل بعضهم بعضًا عما يحتجون به سؤال انتفاع.

والمشهد الثالث حول نداء الله تعالى لهم، وسؤالهم عن شركائه المزعومين، وقد جاء الجواب ببيان علمهم حينئذ إن الحجة البالغة لله عليهم، وأن الحق لله، وقد ذهب عنهم ما كانوا يفترون على ربهم.

والموضع الأخير من سورة "القصص" يلتقي مع موضع سورة " فصلت" في الانتقال العجيب من الحديث عن آيات قدرة الله في جعل الليل والنهار للسكن وابتغاء الفضل، ثم الانتقال للحديث عن ندائهم وسؤالهم عن شركاء الله في قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴿٧٤﴾﴾ [القصص: ٧٣-٧٤]؛ لتأتي صورة الربط بين المشهدين على نحو ما جاء في مشهد سورة " فصلت" من روعة صورة إعجاز الإيجاز.

هذا، وقد جاء فعل النداء بصيغة المضارع (يُنَادُونَهُمْ)، على لسان أهل النار في سورة "الحديد" في سياق حوارهم مع أهل الجنة، وتذكيرهم لهم بأنهم كانوا معهم في الدنيا؛

وذلك في قوله تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴿١٤﴾﴾

وجاء الفعل (نَادُواْ) ماضيًا في سياق أمر الله لهم أمرًا لازمًا بنداء شركائهم، ودعائهم إياهم، وعدم إجابتهم لهم؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴿٥٢﴾﴾ [الكهف: ٥٢].

وجاء -أيضًا- بصيغة (نَادَىٰٓ) في ثلاثة مواضع من سورة الأعراف، وصيغة (نَادَوْا) في موضع واحد في سياق حوار أهل الجنة مع أهل النار، وبيان تحقق ما وعدهم الله وصدقه، وتوبيخهم، ونداء أصحاب الأعراف لأهل الجنة وتسليمهم عليهم، وندائهم لكفار من أهل النار يعرفونهم بسيماهم، وبيانهم أنه لم ينفعهم ما جمعوه من مال، وما كان منهم من استكبار، ونداء أصحاب النار لأصحاب الجنة، وطلبهم أن يفيضوا عليهم من الماء أو مما رزقهم الله؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّاۖ قَالُواْ نَعَمْۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْۚ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴿٥٠﴾﴾ [الأعراف: ٤٤-٥٠].

وقد جاء النداء بالماضي لاستحضار صور هذه المشاهد من جهة، وبيان تحققها من جهة أخرى، وهو مؤذن بالبعد المكاني في هذه المواقف على نحو ما تقدم.

٤- التقابل بين مشاهد الحوار:

الحديث عن "المقابلة" وما فيها من الجمع بين أطراف الكلام، وتصوير المواقف والمفارقات، لا ينفصل عن الكلام في "الطباق"، وما يحمله من صور التضاد؛ وقد عرف عبد القاهر "الطباق" تعريفًا يشي بما فيه من "التقابل"؛ فقال: "هو مقابلة الشيء بضده"(١).

ف "المقابلة" صورة من صور التضاد في الكلام، وإن كانت أوسع مجالًا من الطباق؛ لكونها تأتي بالأضداد وغيرها (٢).

وقد رافقت "المقابلة" "الطباق" في بعض مشاهد حوار الآخرة؛ لترسم في الأذهان صورًا لأحوال شتى ومفارقات بين مواقف أهل الجنة والنار؛ لبيان اختلاف أحوالهم بين النعيم والعذاب؛ للعظة والعبرة، والرغبة والرهبة (٣).

وقد تأتي في مواضع مع الطباق للحديث عن أهل النار خاصة؛ لبيان اضطراب وتباين الأحوال.

---

(١) ينظر: الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، صـ ٢٠، وذكر الباقلاني قبله: "أن أكثرهم على أن معناها: أن يذكر الشيء وضده، وإلى هذا ذهب الخليل بن أحمد، والأصمعي، ومن المتأخرين عبد الله بن المعتز". إعجاز القرآن، صـ ١٢٢

(٢) الحموي، ابن حجة، خزانة الأدب: ٢/ ٢٤.

(٣) ومن مواضع ذلك: الآية (١٠٦) من سورة آل عمران، والآيتان: (٢١، ٢٢) من سورة إبراهيم، والآية (٤٩) من سورة الكهف، والآية (١٢٥) من سورة طه، والآية (٥٥) من سورة العنكبوت، والآية (٢٠، ٢١) من سورة السجدة، والآية (١٣) من سورة الحديد، وغيرها من المواضع.

ومن ظواهر التقابل اللافتة في حوارات الآخرة: مجيئه في صورته الأوسع بين مشهدين، وهو عادة من عادات القرآن، في عرض مشاهد يوم الميعاد، وتختلف صوره باختلاف السياق والمقام ومنها: التقابل بين مشهدين حواريين لأهل النعيم والجحيم، وقد يكون تقابلًا بين مشهد حواري مع أهل النار، وضد ذلك من نعيم أهل الجنة في (غير سياق الحوار)، ويأتي الحديث عن أهل الجنة في (غير سياق الحوار)، وضده من حوار أهل النار؛ وهذا أمر يحكمه السياق والمناسبة؛ بما يرتبط بمقاصد القرآن في كل موضع ومقام.

وهذا التنوع والتفنن في "التقابل"؛ مما يرسخ مقصود العظة والعبرة، ويلتقي مع غايات الهداية، والتحذير من مصائر الهالكين، وينسجم مع طبيعة التصوير لهذه المشاهد الغيبية، التي تقتضي أن يجتمع فيها الترهيب مع الترغيب؛ حتى تكتمل معالم الصور، وتتم غايات الذكر الحكيم من الإنذار والتبشير... ومن هنا كان التقابل سمة ظاهرة في كثير من مواضع حوار الآخرة في القرآن الكريم.

صورة التقابل في سورة "غافر":

جاء التقابل في مشاهد الآخرة في موضعين من مواضع الحوار الثلاثة في السورة؛ الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ ١٠ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ١١ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡۖ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ١٢﴾ [غافر: ٧-١٢].

"ابتدأ الكلام هنا بذكر الوعيد للكافرين، ثم استؤنف بالانتقال من ذكر الوعيد المؤذن بذم الذين كفروا إلى الثناء على المؤمنين...والمناسبة المضادة بين الحالين والمقالين"(١).

وجاءت ضراعة الملائكة المقربين من حملة العرش ومن حوله لهؤلاء المؤمنين بأن يدخلهم الله الجنة... وأن يقيهم ما يسوؤهم يوم القيامة؛ ثم جاء المشهد الحواري بعد ذلك في مقابلة هذه الحال؛ بهذا الحوار الذي يُخاطب به الذين كفروا من التوبيخ والتنديم، وسبق بيان شيء من بلاغة هذا الحوار عند الحديث عن صورة النداء في المشهد الحواري الأول من سورة "غافر".

وفي المشهد الحواري الثاني من السورة؛ نجد هذا التقابل، وقد بدأ هذه المرة بالمشهد الحواري، واحتجاج أهل النار في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٧] إلى قوله على لسان خزنة جهنم: ﴿قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ٥٠﴾ لينتقل إلى الحديث عن المشهد المقابل (في غير سياق الحوار) ببيان نصر المؤمنين في الدنيا والآخرة، ويوم يقوم الأشهاد؛ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾؛ و"الشهادة على الناس من الملائكة والأنبياء والمؤمنين "(٢).

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير ٨٩/٢٤

(٢) البيضاوي، أنوار التنزيل ٦٠/٥

صورة التقابل في سورة "فصلت": جاء حوار الآخرة في ثلاثة مواضع من سورة "فصلت"، وقد جاء التقابل بين مشاهد الحوار في موضع واحد منها؛ اجتمع فيه المشهد الأول والثاني من الحوار مع أهل النار، ثم جاء ما يقابله من الحديث عن نعيم المؤمنين.

وقد اختلف مشهد التقابل في صورته وامتداده؛ حيث بدأ بالحديث عن حشر الكافرين أولًا في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴿١٩﴾﴾ إلى أن يصل إلى حوارهم الأول مع جلودهم، وشهادتها عليهم، وإقرار الجلود بإنطاق الله إياها في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢١﴾﴾؛ لينتقل بعد ذلك إلى بيان تقييض القرناء لهم، ونهيهم لغيرهم عن الاستماع إلى القرآن، وما أعده لهم من العذاب في قوله: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابٗا شَدِيدٗا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴿٢٧﴾﴾.

وينتقل إلى المشهد الحواري الثاني، وقد طلب الذين كفروا من أضلهم من الجن والإنس ليجعلوه تحت أقدامهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

وينتقل النظم بعد ذلك إلى الحديث عن الذين استقاموا، ونزول الملائكة عليهم، وحوار تبشيرهم بالجنة، وبيان ولايتهم وحفظهم إياهم بأمر الله في الدنيا والآخرة، وأن لهم ما تشتهي أنفسهم من النعيم؛ إكرامًا وفضلًا من الغفور الرحيم؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴿٣٠﴾نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴿٣٢﴾﴾؛ "فلما ذكر الأعداء وقرناءهم نذارة؛ أعقبه ذكر الأولياء بشارة"(١).

صور التقابل في المواضع الأخرى من "آل حم":

من مواضع التقابل بين حوارات الآخرة في "آل حم" ما جاء في سورة "الزخرف" في قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴿٦٩﴾ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴿٧١﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴿٧٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزخرف: ٦٨-٧٣].

ابتدأ الحوار مع المؤمنين وما ينادون به من الأمان في هذا اليوم، وما امتن الله به عليهم من دخول الجنة هم وأزواجهم يحبرون، وما لهم في الجنة من الفاكهة الكثيرة والنعيم.

وينتقل الحوار إلى صورة أخرى مفارقة لصورة هذا الحبور والنعيم، وهي صورة الحوار مع الكافرين وما هم فيه من العذاب المقيم؛ حيث يقول تعالى عقب الحوار السابق: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴿٧٧﴾ لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴿٧٨﴾﴾.

"لما ذكر الله تعالى حال أهل الجنة وما يقال لهم، عقب ذلك بذكر حال الكفرة من الخلود في النار والإبلاس، وما

(١) البقاعي، نظم الدرر ٦/٥٧٠

يجاوبون به عند سؤالهم؛ ليبين الفرق ولتتضح الأمور التي منها النذارة؛ وليبين فضل المطيع على العاصي"[(١)]

ونرى صورة التقابل بين حوار العذاب، والحديث عن المقام الأمين في سورة "الدخان"؛ حيث بدأ بالحديث عن عذاب الأثيم، وما تخلله من حوار التوبيخ والإذلال في قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ۝٤٧ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ۝٤٨ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ۝٤٩ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ۝٥٠﴾ [الدخان:٤٧-٥٠].

ثم انتقل لما يضادها ويقابلها من صورة المقام الأمين، والزواج بالحور العين... في سياق الحديث عن نعيم المتقين، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ۝٥١ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٢ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٥٣ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ۝٥٤ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٥٦ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٥٧﴾

ويأتي هذا التقابل أيضًا في سورة "الجاثية" بين الحديث عن الأمم الجاثية، ودعوتها إلى كتابها؛ لينتقل إلى الحديث الموجز (في غير سياق الحوار) عن دخول المؤمنين في رحمة الله في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ۝٣٠﴾.

ثم ينتقل للحوار المطول مع الكافرين في عدة مشاهد في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ۝٣١ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ۝٣٢ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٣٣ وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٣٤ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ۝٣٥﴾ [الجاثية:٣١-٣٥].

ويظهر هذا التقابل -أيضًا- في سورة "الأحقاف" من خلال الحديث عن أصحاب الجنة (في غير سياق الحوار)، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝١٣ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٤﴾، ثم الانتقال بعد ذلك أثناء السورة للحوار مع الذين كفروا، في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ۝٢٠﴾.

ويلحظ هنا أن "آل حم" قد اشتملت على وجوه شتى من التقابل بين مشاهد الحوار، فمنها مشاهد جاء فيها التقابل بين مشهدين حواريين للحديث عن أهل الجنة وأهل النار، كما في سورة "الزخرف".

وفي مواضع أخرى جاء التقابل بين مشهد حواري مع أهل النار، ومشهد يصف نعيم أهل الجنة (في غير سياق الحوار)، كما في المشهد الحواري الثاني من سورة "غافر"، وسورة " فصلت، والدخان، والجاثية، والأحقاف"؛ وذلك يلتقي مع ما سبق من تركز الحوار في "آل حم" حول أهل النار، ما عدا موضع سورة" الزخرف" كما تقدم، عند الحديث عن مضامين الحوار في "آل حم".

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز٥/٦٤، والقرطبي، محمد، تفسير القرطبي ١٩/٨٤، والأندلسي، أبو حيان، البحر المحيط ٨/٢٧

من صور التقابل الأخرى في القرآن الكريم:

من صور التقابل الحواري في غير "آل حم": سورة "الزمر"، وهي السابقة لسورة "غافر"؛ في سياق الحديث عن سوق الكافرين إلى النار، والمتقين إلى الجنة، ومفارقة المشهد الحواري، والمتمثل في خطاب الكافرين؛ توبيخًا، وتحسيرًا، وخطاب المتقين؛ تبشيرًا، وتكريمًا؛ وذلك في قوله تعالى:﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ٧٢ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ٧٣﴾[الزمر: ٧١-٧٣] (١).

والمشهد هنا خلاف مشهد سورة "غافر"؛ حيث جاء التقابل في الموضعين السابقين منهما بين مشهد المؤمنين (غير الحواري)، وما يقابله من الحوار مع الكافرين، والثاني بدأ بالمشهد الحواري في سياق تحاج المعذبين، وما يقابله من الحديث في (غير سياق الحوار) عن نصرة المؤمنين في الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد.

ولكن مشهد سورة "غافر" يتميز بتغطيته لمساحة واسعة من حوار أهل النار مقابلة بسورة "الزمر"، والتنوع في صور التقابل خاضع لمحاور السورة؛ حيث تقصد إلى "إقامة أنواع الحجة والبرهان على أهل الكفر والضلال". والله أعلم.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على من أوتي الكتاب والحكمة، محمد بن عبد الله الأمين.

وبـــعد

تجلى من البحث ما يأتي:

١- روعة التلاؤم والتناسب بين سور "آل حم" في مطالعها ومقاطعها، وفي محاورها ومقاصدها.

٢- دقائق التشكيل في حوار الآخرة؛ حيث تنمو المشاهد وتتدفق في "آل حم" في نسق عجيب وفريد.

٣- اجتماع السمات الخاصة ببناء الأسلوب، والمتمثلة في المزج الدقيق بين الخبر والطلب، والتصوير المرئي لمشاهد الغيب في صور قصصية عجيبة، وصور النداء في يوم التناد، وروعة التقابل والمفارقة في مشاهد الحوار.

٤- امتاز حوار الآخرة في "آل حم" في تشكيله البلاغي بخصائص أسلوبية لم تتكرر في نظائره في القرآن الكريم.

٥- اتجاه حوار الآخرة في "آل حم" في مجمله للحديث عن أهل النار ومشاهدهم، ومواقفهم؛ فلم يأت حوار أهل الجنة إلا في موضع واحد فقط من سورة "الزخرف" في مقابلة حوار أهل النار؛ لما وراء حواراتهم ومواقفهم من غايات في: العظة والعبرة، والزجر، والتحذير من مصائر الهالكين.

٦- التفنن في صور حوارات الآخرة ومشاهدها، وبناؤها على نمط التصوير بأفعال الرؤية البصرية ذات الصيغ الفعلية المتنوعة؛ لاستحضار مشاهد القيامة في صورة

(١) من مواضع تقابل حوار الآخرة في صور ومواقف مختلفة: الآيات من (٣٨-٤٤) من سورة الأعراف، والآيات (٢٧-٣٥)، (٥٠-٦١) من سورة الصافات، والآيات (١٣-٢٩) من سورة الطور، والآيات (١٩-٣٧) من سورة الحاقة.

حية متجددة، ومتدفقة بالحركة والنمو، وهو من مبتكرات القرآن القصصية في أحوال الآخرة.

المراجع

القرآن الكريم

إسماعيل، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي السلامة، ط دار طيبة، الرياض، ط١، ١٤١٨هـ.

الألوسي، شهاب الدين محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: ماهر حبوش، ط مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٣١هـ.

الأندلسي، أبو حيان، محمد بن يوسف، البحر المحيط، تحقيق: عادل عبد الموجود، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ.

الباقلاني، أبو بكر بن الطيب، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد صقر، ط دار المعارف، القاهرة، ١٣٧٤هـ.

بدر الدين الزركشي، محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط دار التراث، القاهرة، ١٩٥٧م.

البروسوي، إسماعيل حقي، روح البيان في تفسير القرآن، تحقيق: عبد اللطيف عبد الرحمن، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط٤، ٢٠١٨م.

البغدادي، عبد اللطيف، ذيل الفصيح، مطبعة وادي النيل، القاهرة، ط١، ١٢٨٩هـ.

البغوي، الحسين بن مسعود، تفسير البغوي، معالم التنزيل، تحقيق: محمد النمر، ط دار طيبة، الرياض، ١٤٠٩هـ.

البقاعي، برهان الدين إبراهيم، مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، تحقيق: عبد السميع حسنين، ط مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ.

البقاعي، برهان الدين إبراهيم، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

البيضاوي، ناصر الدين عبد الله، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد المرعشلي، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٨هـ.

الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة، تحقيق: محمود شاكر، ط مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٩١م.

جمال الدين، ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، ط دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ.

الجمل، سليمان بن عمر، الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط٥، ٢٠١٨م.

الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عطار، ط دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٩٩٠م.

الحموي، تقي الدين بن حجة، خزانة الأدب وغاية الأرب، تحقيق: عصام شعيتو، ط دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.

الخطيب الشربيني، محمد بن أحمد، تفسير السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا العليم الخبير، ط بولاق، القاهرة، ١٢٩٩هـ.

الخفاجي، شهاب الدين أحمد، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، عناية القاضي وكفاية الراضي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ.

الرازي، فخر الدين، تفسير مفاتيح الغيب، تحقيق: سيد عمران، ط دار الحديث، القاهرة، ١٤٣٣هـ.

الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد كيلاني، ط دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.

الزجاج، أبو إسحاق إبراهيم، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل شلبي، ط عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ.

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عادل عبد الموجود، ط مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤١٨هـ.

السمين الحلبي، أحمد بن يوسف، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تحقيق: أحمد الخراط، ط دار القلم، دمشق، بدون تاريخ.

السمين الحلبي، أحمد بن يوسف، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، تحقيق: محمد عيون السود، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الإتقان في علوم القرآن، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية، ط مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٤٢٦هـ.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: محمد جاد المولى وآخرين، ط دار التراث، القاهرة، ط٣، بدون تاريخ.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، تناسق الدرر في تناسب السور، تحقيق: عبد القادر عطا، ط دار الفضيلة، القاهرة، ١٤٢٢هـ.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، تحقيق: عبد المحسن العسكر، ط دار المنهاج، الرياض، ط١، ١٤٢٦هـ.

شادي، محمد إبراهيم، الحوار في القرآن الكريم، خصائصه التركيبية وصوره البيانية، ط دار اليقين، المنصورة، ط١، ٢٠١٠م.

الشهاب الخفاجي، أحمد بن محمد، شرح درة الغواص في أوهام الخواص، تحقيق: ميسون نجيب، ط دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، ٢٠١٢م.

شيخ زاده، محي الدين محمد، حاشية زاده على تفسير البيضاوي، محمد عبد القادر شاهين، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

الطاهر، محمد، ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ط الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

الطيبي، شرف الدين الحسين، حاشية الطيبي على الكشاف، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب، تحقيق: إياد الغوج، وجميل عطا، ط جائزة دبي الدولية، ط١، ٢٠١٣م.

عبد الحق، ابن عطية، أبو محمد، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام محمد، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

عبد العظيم بن عبد الواحد، ابن أبي الإصبع، الخواطر السوانح في أسرار الفواتح، تحقيق: حفني شرف ط القاهرة، ١٩٦٠م.

العمادي، أبو السعود بن محمد، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، تحقيق: عبد القادر عطا، ط مكتبة الرياض الحديثة.

عمر، ابن عادل، أبو حفص، اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: عادل عبد الموجود، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

الفارسي، أبو علي، الحسن بن عبد الغفار، الحجة للقراء السبعة، تحقيق: بدر الدين قهوجي، ط دار المأمون للتراث، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.

الفراء، أبو زكريا يحي، معاني القرآن، ط عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٤٠٣هـ.

الفيروزآبادي، مجد الدين محمد، القاموس المحيط، تحقيق: أنس الشامي، ط دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٩هـ.

الفيروزآبادي، مجد الدين محمد، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق: محمد النجار، ط دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

القاسم بن سلام، أبو عبيد، غريب الحديث، تحقيق: حسين شرف، ط الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٩٨٤م.

القاسم بن سلام، أبو عبيد، فضائل القرآن ومعالمه وآدابه، تحقيق: أحمد الخياطي، ط وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، بدون تاريخ.

القرطبي، محمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الله عبد المحسن التركي، ط مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ.

القُونَويّ، عصام الدين إسماعيل، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي، تحقيق: عبد الله عمر، ط دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

الكرماني، محمود بن حمزة، غرائب التفسير وعجائب التأويل، تحقيق: شمران العجلي، ط دار القبلة للثقافة، جدة، ١٤٠٣هـ.

الماوردي، علي بن حبيب، تفسير النكت والعيون، تحقيق: السيد عبد الرحيم، ط دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

مجد الدين بن الأثير، المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: الطاهر الزاوي، ومحمود الطناحي، ط دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٨٣هـ.

المنتجب الهمذاني، منتجب الدين بن أبي العز، الفريد في إعراب القرآن المجيد، تحقيق: محمد نظام الدين الفتيح، ط دار الزمان، المدينة المنورة، ط١، ٢٠٠٦م.

النسفي، أبو البركات عبد الله، تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل، تحقيق: يوسف بديوي، ط دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

النسفي، أبو حفص، عمر بن محمد، التيسير في التفسير، تحقيق: ماهر حبوش، ط دار اللباب، تركيا، ط١، ١٤٤٠هـ.

الواحدي، أبو الحسن علي، التفسير البسيط، تحقيق: محمد الفوزان، ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٣٠هـ.